العودة إلى البحر

الحقوق كافة
محـــفـــوظـة
لاتـحـاد الـكـتّـاب الـعـرب

البريد الالكتروني: unecriv@net.sy E-mail :
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

تصميم الغلاف للفنان : اسماعيل نصرة

❑❑

د. أحمد زياد محبك

العودة إلى البحر

قصص قصيرة

من منشورات اتحاد الكتّاب العرب

دمشق-2001

تل أم أحمد

طرقتان واثقتان، ولكن في احترام، ويفتح باب مكتبي، ويطل عليّ وجه أسمر، بشاربين كثيفين، وعينين تنبضان ثقة وحباً، ملأ دخوله وجداني كله، تلقيته بقلبي ومعرفتي وعواطفي، دفعة واحدة، مثل ضوء يغمر الكون فجأة، كاليوم الذي أشرفت بي فيه السيارة على قريته، قرية التل، فرأيتها كلها دفعة واحدة، ببيوتها الطينية ذات القباب الدافئة، الملتفة حول تل صغير يتوسط القرية، رأيتها أول مرة فعرفتها على الفور، ملكتها كلها، بل ملكتني كلي، كأني أعرفها، وكأنها تعرفني منذ ألف عام، كأني رأيتها من قبل في الحلم، ثم رأيتها في الواقع، كان الفصل ربيعاً، وكل شيء يموج وينفث عطره الحي الفاغم، وحين دخلتها ملأت صدري رائحة ترابها، ورائحة الخبز في تنور تقف أمامه امرأة محمرة الوجنتين والساعدين، وهي تمد يدها برشاقة إلى داخل التنور، وتسحب رغيفاً، تقدمه إلي، فأتناوله منها، وأقول لها: "على العافية"، وأحس أني قد أصبحت جزءاً من قرية التل، من نارها وترابها وهوائها، وهذا هو حسين، لابد أن يكون هو، بل إنه هو.

"هذا أنت يا حسين؟"

وقمت إليه، فتحت له ذراعيّ، وعانقته.

"نعم، هذا أنا يا أستاذي، أراك ذكرتني على الفور؟!"

"وكيف أنساك يا حسين؟!"

قرية التل هي أول مكان في العالم أرى من خلاله العالم، كلفت بالتدريس فيها، وأنا ما أزال طالباً بالجامعة، فكان فيها أول عهدي بالتدريس والعمل والحياة والناس والعالم، فيها عملت أول مرة في حياتي، وكسبت الرزق، وبفضلها لمست يدي أول مرة نقوداً أكسبها بعرق الجبين، وفيها عرفت أول مرة حلاوة التدريس وصعوبته، ومتعة التعرف إلى الناس والاختلاط بهم، وفيها ذقت أول مرة الخبز الذي لم أذقه في بيتي، وفيها شربت أول ماء لم أشربه في بيتي، فيها أكلت خبز الحنطة الخالصة، وشربت فيها الماء المسحوب من البئر، بما فيه من ملوحة ورمل وعكر، وفيها عرفت أم أحمد.

"أهلاً يا حسين، أصبحت رجلاً، لاشك أنك تخرجت من الجامعة"

"سنة أخيرة في كلية الطب"

"عظيم، عظيم جداً يا حسين"

"نحن نتابع أخبارك يا أستاذ، وقد علمنا بنيلك الدكتوراه، وانتقالك إلى الجامعة"

"أوه، شكراً، شكراً يا حسين"

كانت قرية التل بالنسبة إليّ جمهورية أفلاطون، أو لعلي هكذا رأيتها، وكان وصولي إليها يوم سوقها الأسبوعي، ففي يوم من أيام الأسبوع، وأظنه الاثنين، يعقد فيها سوق يأتي إليه الفلاحون من كل القرى، يحملون غلال أرضهم لبيعها، كما يأتي إليها البائعون من المدينة يحملون حاجات وبضائع كثيرة مما يحتاجه أهل القرى، ولعل أول ما لفت نظري في سوقها الجمال، كانت أول مرة أرى فيها الجمال، وأنا ابن المدينة، طالما قرأت عنها في الشعر، ولكني رأيتها في السوق رؤية العين، فسررت جداً برؤيتها، ثم رأيت باقات البنفسج والنرجس تبيعها الفلاحات، باقات زكية الرائحة، فاشتريت باقة بنفسج.

في قرية التل حسبت نفسي أمام نموذج مصغر للعالم كله، والتل الذي رأيته من بعيد، بدا لي داخل القرية كبيراً، كبيراً جداً، وكأنه نسر يحميها، وبيوتها تلتف من حوله، فأثار خيالي، وبدا لي كأنه مركز الكون وقطبه، وعلى الفور تاقت نفسي إلى صعوده، ولم أتردد في سؤال طلابي عن إمكان صعوده بعد نهاية الدوام، فتحمس الجميع لذلك، وقال أحدهم: "ولكن لابد من موافقة أم أحمد".

وبعد نهاية الدوام كنا نصعد التل، تتقدمنا أم أحمد، تقودنا، ومن حولها يتراكض أربعة تلاميذ، "أستاذ، أم أحمد لا تسمح لأحد بصعود التل، إلا بإذنها"، "أم أحمد تخبئ في التل كنزاً، لا يعرف أحد موضعه إلا هي"، "كل يوم تصعد إلى التل في الصباح، وتنظر إلى السماء، ثم تقول للفلاحين: "اليوم سينزل المطر، لا تزرعوا، اليوم حار، اذهبوا واسقوا أرضكم، كل مرة بحسب الموسم، في الصيف أو الشتاء، في الربيع أو الخريف"، "أستاذ؛ مرة أخبرتهم عن جراد، وراحت قدام الرجال إلى البرية، ومعها كيس كبير، لتجمع الجراد"، والتفتت أم أحمد إلى التلاميذ، وصاحت بهم: "اسكتوا يا أولاد، اتركوا الأستاذ يتفرج على الضيعة، من فوق التل".

ويسألني حسين عن التدريس الجامعي واختلافه عن التدريس في المرحلة الثانوية، وعن إمكان التوفيق بين العمل والمطالعة والكتابة، فأشير إلى أوراق الامتحان على المنضدة أمامي، وأقول له:

"كما ترى، وأنت أيضاً طالب جامعي، وتستطيع أن تقدّر"

ثم أضغط الزر، داعياً الآذن، ليحضر لنا فنجاني قهوة.

لم يكن صعود التل سهلاً كما حسبته في البداية، كان تلاً ترابياً، ولكنه متماسك، وفيه مواضع انهيارات كثيرة، فيبدو كالجرف من المستحيل تسلقه، ولكن أم أحمد كانت تتقدمنا في مسالك تعرفها، وهي تمضي أمامنا، وقد جعلت يديها وراء ظهرها، تسحب خطواتها سحباً، وقد تجاوزت

التسعين، من غير شك، ولابد أن تكون اليوم قد بلغت المئـة، أو تجاوزتها، هذا إذا كانت ما تزال على قيد الحياة، فقد مر علـى ذلك نحـو عشر سنوات، وحين سألتها عن عمرها، أجابت: "لا أعرف"، وتابعت سحب خطواتها، ثم أضافت: "لا أعرف لماذا يسأل الناس دائماً عن الأعمار، غلط يا بني، غلط، الأعمار لا قيمة لها، يا بني عاشت في قديم الزمان عجوز مثلي، طلبت من ربها أن تعيش ألف سنة، فعاشت ألف سنة، ولكن بعد المئة مرضت، وصارت تتمنى الموت، ماذا أفادتها ألف سنة؟! لو أنها طلبت العافية، المهم يا بني أن تعيش في صحة وعافية، وتعرف كيف تنفع الناس".

كان تراب التل ندياً بمطر الليلة السابقة، ولكنه لم يتحول إلى طين، فهو مطر ربيعي ناعم، سرعان ما تشربه الأرض، ويتبخر بأشعة الشمس الدافئة، وكانت الشمس المائلة إلى الأفق الغربي تدفئنا، حتى إنني أحسست بالتعرّق، وحين بلغت قمة التل، رأيتها فسيحة منبسطة، فيها مرج أخضر جميل، ما وطئته قدم، ولا رعته شاه، فهو طويل زاه، متألق بالشمس الضاربة إلى الصفرة.

وعلى الفور وجدت نفسي أقعد على الأرض، وقد قعدت أمامي أم أحمد، وقعد التلاميذ الأربعة، وإذا نحن حلقة مغلقة، وأخذت أداعب ورقة ندية من العشب الأخضر الناعم، ثم أخذت أنكت الأرض بيدي، وقد خيم علينا جميعاً صمت قدسي، كأننا ننتظر العجوز أن تتكلم.

كان وجهها ونحن فوق التل مثل الأرض في شهر تموز، وقد تشقق جلده، وحفرته الأخاديد وأحرقته الشمس، وعيناها تتوهجان في انخطاف غريب، مثل التوهج الأخير في ذبالة شمعة توشك أن تنطفئ، ولكنها لا تنطفئ، ومن ورائها كانت تمتد السهوب في انبساط سهل واسع، وهي سهوب خضر، تسكب عليها الشمس أشعة صفراء متألقة.

لم تتكلم، لم يتكلم التلاميذ، لم أتكلم، لفّنا جميعاً صمت مهيب، ثم نهضنا، وأخذنا نهبط، من الطرف الغربي للتل،

مشرفين على مقابر القرية، والشمس بدأت تغيب.

ذكرت بيتي في المدينة، تصورت أهلي، وهم يجتمعون على المائدة، وأنا لست بينهم، اعتراني شعور غريب بالوحشة والاكتئاب.

وحين احتوتنا حارات القرية وطرقاتها الترابية، وصرنا بين جدران بيوتها الطينية، التي تعلوها قباب حانية، أحسست أنني أدخل رحم الأرض، والعجوز تقود خطاي، وأنا مستسلم لها، وقد بدأت العتمة تشمل العالم، كان لها سطوة قدسية هادئة.

الناس في حارات القرية يلقون عليها وعليّ السلام، نظراتهم تتفحصني بعفوية وبساطة، أحسست نحوها في البدء بالضيق، ولكني ما لبثت أن ألفتها، وكان ثلاثة من التلاميذ الأربعة مايزالون يسيرون معنا، أما الرابع فقد ودعنا وذهب إلى بيته.

وسأل العجوز أحد التلاميذ: "أين سينزل الأستاذ يا أم أحمد؟ في بيت أبو علي أو في بيت أبو حسين؟!" وعرفت أن أم أحمد هي التي تقرر كل شيء.

ويدخل علينا الآذن، فأطلب فنجاني قهوة، وحسين مايزال يعيد عليَّ ذكرى نزولي في دارهم، وكان في نحو الرابعة عشرة، كما يعيد عليَّ ذكرى دخولي عليهم أول مرة في الصف الأول الإعدادي، ويؤكد أنه مايزال يحتفظ بأحد دفاتره المدرسية، وعليه ملاحظاتي، وفيه موضوع مايزال يذكره، وهو: كتابة حكاية سمعتها عن جدتك.

"أم أحمد، هي أمنا الثانية"، هكذا قال لي أحد الطلاب، وأضافت هي: "كل هؤلاء أولادي، كل أهل القرية كنت أنا الداية التي تشرف على ولادتهم، حتى بعد تخرج نادية بنت بشير من الجامعة وعملها قابلة قانونية، أنا أقول لهم أحضروا القابلة، ولكنهم لا يريدون سواي، وفي النهاية وافقت على شرط أن تحضر هي أيضاً، أنا وهي نساعد كل حامل، أنا تعلمت منها، وهي تعلمت مني، ولكنها بصراحة

أفضل مني".

في مساء ذلك اليوم سهرت عند "أبو القاسم"، مختار القرية، كان هناك مدير المدرسة، وطبيب القرية، وعدد من الرجال، ومن غير أن أسألهم، حدثوني. "لا شك أنك ستسألنا عن أم أحمد، الواقع هي كل شيء"، هكذا قال المختار، ثم اندفع كل منهم يقول شيئاً.

عمرها فوق التسعين، ولكنها طول عمرها لم تذهب إلى المدينة، ولم تزر أي طبيب، تعرف كل شيء، تعالج الحمى والصداع والفالج واليرقان، ولكنها آخر الأمر أقسمت ألف يمين مؤكدة أنها لن تعالج أي إنسان، قالت لهم: "هناك الطبيب، اذهبوا إليه، لا تأتوا إلي بعد اليوم".

وهي تساعد كل نساء القرية، هذه تريد أن تخبز فتساعدها على جمع الحطب، وتقطيع العجين، وتلك ضاعت عنزتها، فتذهب من بيت إلى بيت تسأل الناس عن عنزتها، وثالثة تريد الذهاب إلى المدينة، والدخول إلى المستشفى لإجراء عملية، فتبقى في بيتها، ترعى أطفالها، ثم تسهر عليها حين ترجع، وتبقى عندها حتى تشفى، وغيرها وغيرها كثير.

هي التي تفض كل النزاعات، فإليها يحتكم الرجال والنساء في أمور الزواج والطلاق والبيع والشراء والأرض والميراث والموت والحمل والولادة.

في كل عرس هي الماشطة التي تزين أنامل العروس بالحناء، وتضع في كفها النقش، وتحليها وتزينها وتعطرها، ثم تهمس لها كلمات ناعمة، فتتورد وجنتا العروس، وتخفي ضحكة مكتومة.

وكل امرأة تموت، فهي التي تغسلها وتكفنها.

"الموت كاس داير على كل الناس، ويا حظ فاعل الخير"، هذه هي كلمتها في كل مأتم.

وكانت دائماً تروي الحكايات.

مرة حكت لي أن لقمان الحكيم علم أنه لن يموت حتى ينفد ماله من رزق في الدنيا، فطمع في العيش، فصار يأكل في النهار مرة واحدة، بدلاً من مرتين، حتى لا ينفد رزقه، وحتى يطول عمره ثم صار يقسم اللقمة الواحدة إلى لقمتين، والكسرة الواحدة من الخبز إلى كسرتين، ويؤجل طعام اليوم إلى الغد، ثم لم يبق له من الطعام إلا حبة واحدة من الحمص، علم أنه متى أكلها فسوف يموت، فوضعها تحت لسانه أربعين يوماً، يتبلّغ بها، حتى رقت وذابت، ولم يبق منها إلا قشرتها، وعندئذ أدرك أنه لا مفر من الموت، فلفظها من فمه، وتمنى لو أنه استنفد رزقه من قبل، ولم يعمر ما عمّر.

ولم تكن في الأصل من قرية التل، وإنما هي من قرية غير بعيدة عنها، اسمها العدنانية، تزوجت إلى قرية التل، تزوجها أحمد العابد، كانت دون الخامسة عشرة، هكذا تروي هي، وهكذا يؤكد كل الناس، أنجبت له ثلاث بنات، وكاد يتزوج ثانية، فهو يريد ولداً ذكراً، مثل باقي الرجال، ولكنه سيق إلى حرب سفر برلك، إلى حرب الترك والمسقوف، هكذا سمعت، راح، ولم يرجع.

قبل أن تبلغ العشرين، كان زوجها قد سيق إلى الحرب، وبقيت هي مع بناتها، عملت في الأرض التي تركها لها زوجها، ربت بناتها، بلغت الخامسة والعشرين، تجمع حولها الخطاب طامعين في جمالها الناضج.

واستمرت في العمل في الأرض، ومرت سنة، وسنة أخرى، مرت عدة سنوات، الأرض لم تعط، عم القحط، ارتفعت الأسعار، وحام حولها أبو صالح يريد الزواج منها، ولكنها رفضت، كان عنده أربعة ذكور، وبنتان، وقد تجاوز الخمسين، وزوجته في عمرها، وازداد إلحاحه عليها، وازداد إصرارها على الرفض، وتدخل المختار، فأقسمت له أنها لن تتزوج أبداً، فطلب من الرجل أن يكف عن طلبها.

واضطرت إلى بيع الأرض لإطعام بناتها.

بعد سنة أو سنتين وصل إلى القرية بائع سمن، كان

قادماً من البادية إلى سوق القرية، ومعه ولدان شابان، رآها مع بناتها في السوق، فخطب ابنتيها إلى ولديه، وسافرت البنتان مع زوجيهما إلى البادية. ومرت بضع سنوات، زارتها فيها البنتان مرة، أو مرتين، ثم انقطعت عنها أخبارهما.

وبلغت البنت الصغرى الخامسة عشرة، وكانت أجمل من أختيها، ولكن ذات ليلة أصابتها الحمى، وقبل أن يدركها الصباح ماتت. جزعت عليها أم أحمد أشد الجزع، وظلت تبكيها بضعة أشهر، ثم عادت إلى حياة الناس، وبدأت تنساها شيئاً فشيئاً.

حتى ذلك الوقت كانت تدعى أم البنات، ولكن مختار القرية، وكان عجوزاً، اقترح دعوتها بأم أحمد، باسم زوجها، فسرت لذلك، واستجاب الناس، وبدؤوا يدعونها: أم أحمد.

ذات يوم زارها من العدنانية أخوها، ودعاها إلى العودة إلى العدنانية والعيش هناك، ولكنها رفضت، وقالت: "هذه قريتي".

ويدخل علينا الآذن حاملاً فنجاني قهوة، يقدم أحدهما إلى حسين، والآخر لي، وهو بادي التعب، فأبادره بالكلام:

"أنت يا أبو عبدو دائماً متعب، ولكن اليوم التعب واضح عليك أكثر؟!"

فيرسل زفرة طويلة، ثم يقول:

"إيه يا أستاذ، صار عمري فوق الستين، ومازلت كما ترى أعمل، هات فناجين، وخذ فناجين".

ثم يلتفت إلى حسين، وهو يقول له:

"هل تصدق؟! عندي خمسة أولاد، فيهم الموظف وصاحب المحل والتاجر، إيه، يا خسارة تعبي فيهم".

ثم يخرج منسحباً وهو يجر خطاه الثقيلة.

ومرت الأيام، وأم أحمد تزداد انشغالاً بحياة الآخرين،

وتنسى حياتها، حين قررت البلدية هدم التل، كانت أول المعارضين، واستطاعت مع الفلاحين منع البلدية من تنفيذ قرارها، وحين شق طريق يمر بالقرية كانت أول العاملين في شقه، وحين أنشئت المدرسة تبرعت بدارها، واحتفظت لنفسها بغرفة صغيرة لتعيش فيها، وجعلتها خارج المدرسة، وعرض عليها المختار أن تعمل آذنة، ولكنها رفضت، وقالت: "لا أريد أن أقيد نفسي بأي شيء"، ثم أضافت: "وبعد موتي ضموا غرفتي إلى هذه المدرسة".

وتوفي المختار، وخلفه ابنه، وعاد أبو صالح إلى أم أحمد يعرض عليها الزواج منه، وطلبت من المختار الجديد أن يتدخل في الأمر، ولكنه كان شاباً ولم تكن له حنكة أبيه، فنصح لها بالزواج، وازداد إلحاح أبو صالح عليها، فذهبت إلى أولاده، وكانوا قد أصبحوا شباباً، وحدثتهم عن جنون أبيهم، وعزمها على رفض الزواج.

وبعد بضع سنوات اعتل أبو صالح وتوفي، وكان قد رجا أم أحمد قبل وفاته أن تسامحه لمضايقته لها، وإلحاحه عليها.

وفي السنة نفسها توفي المختار فجأة، ولم يكن له سوى ولد، لم يتجاوز العاشرة، فخلفه في المختارية أخوه بدلاً من ابنه، وهو أبو القاسم، المختار الذي أدركته حين كنت في التل، وطوال السنوات الثلاث التي أمضيتها فيها معلماً كانت أكثر سهراتنا عنده، وهو مضياف، حاضر البديهة، حلو الحديث، على الرغم من تجاوزه السبعين.

وقد حكى لي أنه انسكب مرة الحبر من يده على صفحة من صفحات دفتره، فلم يقلق، ولم يشغل، وأسرع على الفور إلى أم أحمد، فروت له أسماء أفراد الأسرة الذين انسكب الحبر على صفحتهم، فقد كانت تحفظ أنساب أهل القرية كلهم.

وأبو القاسم دائم الحديث عنها، وعن أخيه، وهو يؤكد أنه يعرفها حق المعرفة ويعيها منذ أن كان دون العاشرة، وكانت آنئذ في الثلاثين، كما يؤكد أنها كانت على مثل ما

هي عليه اليوم، وهي في التسعين، من وقار واتزان ورجاحة رأي، تتكلم فيصغي الناس إلى كلامها، وتتركهم، فلا أحد يقول في غيبتها غير ما قالت.

والتفتُّ إلى حسين أسأله:

"وكيف حال أم أحمد؟!"

فأجابني:

"أوه يا أستاذ، توفيت"

وصمت، ثم أضاف:

"منذ ثلاث سنوات، كان شتاء قاسياً، حاد البرد، ماتت بعيد العصر، وهي تساعد جارتنا على إيقاد النار في التنور، ماتت فجأة، وقعت أمام التنور، ولم تنهض، ماتت وهي تعمل، كل أهل القرية كانوا يتوقعون أن يستيقظوا ذات يوم ليجدوها ميتة من البرد، متجمدة، أو أن تعتل وتمرض ثم تموت، ولكنها ماتت فجأة، كل الناس لم يصدقوا أنها ماتت، مع أن موتها كان متوقعاً".

وسألته:

"وهل دفنت فوق التل؟"

فأجاب:

"لا، ما فكر أحد في ذلك، فقد كان يوماً بارداً جداً، وساعة تشييعها هطل مطر غزير، فدفنوها في المقبرة الواقعة غربي التل، في قبر حتى الآن لا أحد يعرف أين هو"

"ولماذا؟"

"بعد دفنها استمر المطر يهطل غزيراً، طوال الليل ما انقطع المطر، وجرت السيول، واستيقظ الناس في اليوم التالي، وإذا جزء من التل قد انهار فوق المقبرة، فغطاها، وجرف السيل عدداً من القبور، ولم يبق منها شيء، وضاع قبرها مع القبور التي ضاعت".

"وغرفتها؟!"

"ضممناها إلى المدرسة، وحولناها إلى مكتبة"

"وكيف حال القرية؟ هل تطورت أو اتسعت؟!"

"أوه يا أستاذ، القرية تغيرت، لم تبق قرية التل، أصبحت قرية أم أحمد، بعد وفاتها بأيام اقترح أبو القاسم تسمية القرية باسمها، فوافق الجميع، وسرعان ما رفع كتاباً بذلك إلى البلدية، ورجع الكتاب بالموافقة"

"هذا شيء جميل يا حسين، ليتكم فعلتم ذلك في حياة أم أحمد"

"هناك شيء أجمل"

"وما هو؟"

فتح حقيبته، أخرج ملفاً ضخماً، فيه أوراق يزيد عددها على الخمسمئة، فسألته:

"ما هذا يا حسين؟!"

"مجموعة حكايات أم أحمد، كل واحد منا في القرية، دوّن ما كان قد سمعه عن أم أحمد من حكايات، وهي كما تعرف كانت تروي حكايات كثيرة، وجمعنا بعد ذلك مبلغاً لابأس به، ونحن عازمون على نشر هذه الحكايات في كتاب"

"هذا عمل عظيم يا حسين"

"وقد جئت إليك يا أستاذ باسم أهل القرية، لأطلب منك كتابة مقدمة للكتاب"

نظرت إليه، وهو يرشف قهوته، ثم قلت له:

"مثل هذا الكتاب أعظم من أن يحتاج إلى مقدمة"

"ولكننا نرغب في مقدمة تكتبها أنت بالذات، فنحن نعدّك ابن قريتنا، ولعلك تذكر أنك نبهتنا إلى تلك الحكايات حين كنا في المرحلة الإعدادية، ونحن نعرف أيضاً أن لك اهتماماً بالحكاية الشعبية، وأنك أصدرت كتاباً فيه

مجموعة حكايات".

أشرت إليه بالموافقة، ثم قلت له:

"ولقد وضعت زوجتي يوم أمس بنتاً، وحتى الآن ما أزال أفكر في اختيار اسم لها، وأود سؤالك عن اسم أم أحمد، لتسمية ابنتي باسمها؟"

"في الحقيقة سألنا الكثيرين عن اسم أم أحمد، بعد أن جمعنا حكاياتها، ولكنّ أحداً لم يعرف".

"وهل سألتم المختار، أبو القاسم؟"

"أبو القاسم توفي العام الماضي، وانتقلت المختارية إلى أسرة جديدة، ومختارنا اليوم شاب مثقف، مثل سائر شباب القرية".

وشكرني للقهوة، ثم نهض مودعاً، فقلت له:

"يا حسين نسيت أن أسألك عن التل، ماذا حل به؟ هل فكرت البلدية مثلاً في هدمه؟! وهناك مشروع من هذا النوع، كما أعرف"

"بالعكس، البلدية منعت أخذ أي شيء من ترابه، كانت العادة أن يأخذ الفلاحون التراب من أطرافه لإشادة جدران بيوتهم وقبابها، ولكن البلدية حرمت الاقتراب منه".

"ولماذا؟

"ذكرت لك أن قسماً من طرف التل انهار، ولكن نسيت أن أخبرك أن انهياره كشف عن حجارة تشبه السور، على بعضها كتابات، قال أستاذ التاريخ هي كتابات عربية قديمة، وقال: ربما كانت القرية كلها مبنية على مدينة كانت مبنية أيضاً حول التل".

وصمت هنيهة، ثم قال:

"ما رأيك في زيارة تل أم أحمد؟!"

فأجبته:

"يسرني ذلك، سأزوركم في وقت قريب"

وتناولت منه مجموعة حكايات أم أحمد، احتضنتها إلى صدري بقوة، ثم شددت على يده وهو يصافحني مودعاً، وأنا أنظر إلى وجهه، فأرى سمرة الأرض، وشموخ التل، وأطيافاً بعيدة من ملامح أم أحمد.

←←

أمسية صيف

الشمس الغاربة ترمي أوارها اللاهب على الحديقة المختنقة بما أحيطت من عمارات شاهقة، بدت الأشجار إلى جوارها محض نباتات قزمة غريبة، قممها المحترقة لا تكاد تتحرك، والمرج الأخضر بائس، والناس يروحون ويجيئون بملل، يستقبلون بوجوههم الرذاذ المتطاير من النافورات لعله يمنحهم بعض النداوة، لكنه يزيد من إحساسهم بالوهج الحار.

وأنا على مقعد حجري ساخن، امتص طوال النهار حرارة الشمس، وإلى جانبي زوجتي الصامتة، وولدي سمير، وهو يلهث من الحرّ، ويمسح العرق عن ثنيّات عنقه.

مع دفقات الحرّ اللاهب الصاعد من صهد الأرض، بل من المرج والأشجار والبركة نفسها، تدهم الحديقة ضجة السيارات وسحج عجلاتها وصخب أبواقها.

وألتفت إلى زوجتي أقول لها:

-ما كانت الحديقة هكذا

وترد بصوت لزج وهي تحملق في الفراغ، من غير أن تلتفت إليّ:

-وكيف كانت؟ هذه هي، لم تتغير.

وأردّ، باستياء:

-أصبحت بركة آسنة، مثل مستنقع انظري، العمارات أحاطت بها من كل جانب، وارتفعت، والناس ازدادوا.

وألتفت إليها ثانية، انتظر أن تقول شيئاً، ولكنها تظل صامتة، تحملق في الفراغ، وإلى جانبها ولدي سمير، يمسح العرق عن عنقه.

أتكلم:

-نسيتِ يوم كنا نقصدها أيام الخطبة، فنجدها هادئة مريحة، لا أحد فيها، وكنا

وتقاطعني:

-هذه هي، كما كانت من قبل، ولكن أنت تغيّرت، لا تنسَ، أنت تجاوزت الخمسين.

على نافذة في عمارة شاهقة تنعكس بقايا الأشعة الغاربة، فيتوهج زجاجها، مثل كوة من جحيم، وتضيء مصابيح الحديقة، فتبدو شاحبة باهتة، كأن الضوء يختنق، وغبشة المساء بدأت تلف كل شيء، وتحيطه بهالة من غموض، كأن عيناً يداعبها الكرى فتستسلم له تحت وطأة الحر، والناس يمشون في فتور شديد.

وتتسرب إليّ بهدوء دندنات، كأنها دغدغات أنامل ناعمة في خصر أهيف رقيقٍ، تتماوج وفقها كل الخلجات فتطرب الروح وترتوي.

أكاد لا أصدق.

وألتفت، وإذا هو السواس بمئزره الأحمر المخطط يلفه على وسطه، وقربته الجلدية السوداء يحملها على ظهره، وفوّهتها محزومة بقوة إلى صنبور، وقد ارتدى قميصاً أسود مطرّزاً، وعلى رأسه طربوش أحمر، له خيطان سود كثيفة، وبين يديه طاسات نحاسية صفراء تلتمع فيها الدندنات، وتشرق في نغم ناعش ينثر من حوله الأنداء.

ومن غير أن أناديه يدنو مني، يصب في إحدى الطاسات قليلاً من الماء، يخضّ الطاسة، ثم يرشق الماء

علـى الأرض، فـأحس بالرطوبـة العذبـة، ثـم ينحنـي قلـيلاً، ليصب من فوهة القربـة السوس في الطاسـة، فيسيل أسود قانياً، وتطفو الرغوة الصفراء زاهية.

أتنـاول منـه الطاسـة، أقدمها إلـى زوجتـي، ثـم أتنـاول الطاسـة الثانيـة، أقدمها إلـى ولـدي سـمير، ثـم آخذ الطاسـة الثالثـة، أرفعهـا إلـى فمـي، وأنـا أمـلأ نـاظريّ مـن الرغـوة الطافيـة، أرتشـفها، فـإذا هـي ناعمـة مدغدغـة، ثـم أحتسـي السوس بارداً معطراً بالشّنّد، أحس بالسائل الحلو يسري فـي عروقي، يدب في المفاصل، ينعشها كالنغم القديم.

مـن أيـن جئـت أيهـا السـاقي؟ مـن بعثـك فـي هـذا الظمـأ القاتل؟ هل أنـا فـي حلـم أم هـل أنـا فـي واقـع؟ رحـم الله جدّك وأباك، لا شك أنهما كانا سوّاسَيْن كريمين مثلك.

لا أنسى أبـو علـي السـواس، وهـو يدنـدن بطاسـته قادمـاً مـن أول السـوق المسـقوف، فـأخرج مـن دكـان أبـي، وأقـف متلهّفـاً، أنتظـر وصـوله إلينـا، والتجـار علـى جـانبي السـوق يستوقفونه، وهو يصب لهذا، ويسقي ذاك.

-متى يصل إلينا؟

هكذا أسأل أبي، ويجيبني:

-انتظر

وأنا أتشوّف إليه، أرفع رأسـي، وسط السوق المملـوء بالنـاس الغـادين الـرائحين، ودندناتـه تقتـرب شـيئاً فشـيئاً، والفرح يقترب مني، أهفو إليه ظامئاً مشتاقاً، حتى إذا ما ملأ قلبـي لحنـه الـراقص رأيـت يـده تمتـد إلـي بطاسـة صـفراء، تعلوهـا رغـوة مثـل قبـة مـن ذهـب، ومـن أطرافهـا ينسـكب السـوس شـهياً، وأرفـع الطاسـة إلـى فمـي أعـبّ الرغـوة، يـا إلهي، كم أحبها؟!، مرة صب لي السوس فـي كـأس بلوريـة، فقلت لـه: "لا، لا، لا أريدها إلا في تلك الطاسـة النحاسية، فهي أجمل".

ويصب لأبي، فيناول أبي طاسات السوس للزبـائن فـي المحـل، يسـقيهم، يرتـوون، ينتشـون، أرى البهجـة علـى

وجوههم، أحس الكرم في أبي.

وقبل أن يمضي يسحب قلماً أحمر مفلطحاً من وراء أذنه، ثم يرسم خطين، أو ثلاثة على الحائط بجوار مدخل الدكان ثم يمضي.

مرة رأيته ينجر القلم بسكين كانت في يده، حتى يدبّب الرصاص الذي فيه، هو قلم متميز، مسطح، أو مفلطح، رصاصه أسود كثيف، ما رأيت مثله من بعد، وكان إذا أراد أن يخط به على الجدار بلّه بلسانه.

وأسأل أبي:

-لم يأخذ ثمن السوس؟

ويرد:

-سأعطيه آخر الأسبوع.

-وهل يعرف كم طاسة شربنا؟

-وضع خطوطاً كما ترى على الجدار.

-وإذا مُحيت؟

-لا أحد يمحوها، وأنا دائماً أعطيه أكثر مما يطلب.

وفي المساء، قبيل الإفطار في شهر رمضان، وأنا ظامئ أشد الظمأ، تأتيني دندنة طاساته فأدرك أن المغرب قد اقترب.

وأحمل إبريقاً نحاسياً، ينفحني أبي ربع ليرة، يقول لي: "هيا"، وأعدو في الزقاق، أسرع إليه أمد إليه بدي بالإبريق، فيملؤه حتى يطفح، وتطفو الرغوة، وأناوله ربع الليرة، فيأبى أن يأخذها، وألح عليه فيقول:

-سلم لي على والدك وقل له: فضلُك سابق.

ولا أنسى نصف الفرنك الأصفر المدور المثقوب في الوسط، كنت آخذه من أبي، أدّخره، لأشتري به طاسة سوس، وأنا ذاهب إلى المدرسة، إيه، الله يرحم تلك الأيام، كنت بعمر ولدي سمير في الصف الأول، وكان ثمن الطاسة

نصف فرنك، واليوم ثمنها خمس ليرات.

ويرد إليّ ولدي الطاسة.

-اشرب، سمير، اشرب

-لا، ما أحببته

-لكنه لذيذ

-ما أحببته

آخذ الطاسة من ولدي أعبّها، أحس بالارتواء.

وألتفت إلى زوجتي، أراها تشرب من طاستها بهدوء قليلاً قليلاً، أتفرّس في ملامح وجهها، أدرك أنها تشربه على مضض.

سمير يتكلم:

-أنا سأشتري آيس كريم.

وتتكلم زوجتي:

-واشتر لي واحدة يا سمير.

ثم تهمّ بدفق ما تبقى في طاستها من سوس على الأرض، فأصيح بها:

-لا، لا، هاتها.

وآخذ طاستها، وإذا هي لم تشرب سوى ثلثها، فأكرع بقيتها بسرور.

فسد كل شيء، وتغير، ويا للأذواق، رشفة من طاسة السوس أحب إلى قلبي من أنواع المرطبات كلها، ولكن...

وأرى طفلاً في الثالثة من عمره، يتقدم من السواس، وهو يحمل بيده ورقة نقدية، ذات عشر ليرات، ألمح أمه وأباه على مقعد غير بعيد، وهما يرقبانه فرحين به.

الطفل يدنو من السواس، يمدّ إليه يده بالليرات العشر، السواس من غير شك سيأخذ الورقة النقدية، يدسّها في جيبه، ولا يرد إليه شيئاً، يصب له قليلاً من السوس في

الطاسة، لا يكاد يملأ ربعها، ثم يصب فوقها الماء، لقد فسد كل شيء.

السواس يملأ الطاسة إلى حافتها، تطفح ينسكب منها السوس، وتعلوها الرغوة كالقبة، يدنو من الطفل، يميل عليه، يدني الطاسة من فمه، يسقيه بيده يسقيه بهدوء، حتى يرتوي، ثم يشرب السواس من بعده ما تبقى في الطاسة، ثم يمسح بيده رأس الطفل، يقبله، ثم يطبق بأصابعه أنامل الطفل على الورقة النقدية، وهو يشير إليه بلطف، أن اذهب إلى أبويك.

أرمق السوّاس، أحدق في عينيه أرى فيهما عيني جده أبو علي، لا شك أنه أبوه أو جده. يتنبّه السواس إلي، يراني وأنا أرمقه، فيقول لي:

-جدّي، الله يرحمه، وصّاني، وقال لي: أمانة، يا ولد، لا تأخذ ثمن السوس لا من الطفل الصغير، ولا من المرأة الحامل.

ثم يمضي وهو يدندن بطاساته النحاسية الصفراء، وعلى ظهره قربته الجلدية السوداء، تلتمع، وقد بدأت عتمة المساء تزداد كثافة، ومعها تزداد أنوار الحديقة تألقاً.

وأرى أمامي ولدي سمير

-ما هذا يا سمير؟

-اشتريت قطعتين من الآيس كريم، لي ولأمي.

ويرفع أمامي يديه، وهو يحمل بكل واحدة قطعة من المثلجات المجمّدة. أحدق فيه، أحدق في القطعتين ثم أسأله:

-أيهما لك، وأيهما لأمك؟

-هذه بالحليب، لأمي، وهذه بالشيكولاته، لي.

-وأيهما أطيب.

ويرفع بيسراه قطعته، وهو يقول:

-بالشيكولاته أطيب.

القطعة التي يحملها تشع بالنداوة، تأتلق، أحسّها مثلجة، طعم الشيكولاته يذوب في فمي بارداً شهياً، ومن غير تردد أقول له:

-اذهب اشتر لي واحدة.

يتردّد هنيهة، ثم يمدّ إليّ يده بقطعته، وهو يقول:

-خذ قطعتي، وأنا ذاهب لشراء غيرها.

يناولني إياها، ثم يعدو راكضاً، تحت أضواء المصابيح المؤتلقة كاللآلئ.

وتلتفت إليّ زوجتي لتهمس، وهي ترفع قطعة المثلجات إلى فمها:

-كم الصيف جميل.

أحس بأشجار الحديقة وهي تميس، والنداوة تغمر الأرجاء، والناس يمرون كالفراشات، والأضواء تشع فرحاً، وأصداء الدندنات تبتعد شيئاً فشيئاً، كأنها تغيب في حنايا ماضٍ بعيد.

ويظهر ولدي قادماً، وهو يعدو راكضاً نحوي، كأنه قادم من شرفات المستقبل، رافعاً بيده إلى الأعلى قطعة مثلجات تأتلق.

←←

قطٌ من فخّار

أسمع صوت المصعد، وهو يتوقف.

أنهض من مقعدي القريب من باب الشقة، أرمق الساعة المعلقة على الجدار، أطفئ التلفاز، أغادر غرفة الجلوس الواقعة وراء باب الشقة مباشرة، أجتاز الممرّ الضيق، أمضي إلى الشرفة.

تلحق بي زوجتي، تسألني:

"هل أحمل التلفاز إلى الشرفة؟"

"وهل تتسع الشرفة لي وللتلفاز؟"

هكذا أردّ، وأنا أسند ظهري إلى سور الشرفة، مرسلاً نظري إلى الداخل، عبر الممر، أرمق الباب، باب الشقة، منتظراً أن يفتح.

"سأحضر لك كرسيّاً"

"لا، لا تحضري أي شيء"

أطلّ على الشارع، لا حركة، الكائنات كلها هجعت إلى مأواها، الشرفات مغلقة، هاجعة، كلها نامت أرفع رأسي إلى السماء لا أكاد أتبينها.

"الشرفة هنا أفضل من الجلوس هناك في الداخل"

وأرد على كلام زوجتي:

"بل هنا أسوأ، لا نسمة ولا رحمة".

أرمق الباب عبر الممر، أنظر إلى ساعة يدي، أعود إلى غرفة الجلوس، أضغط على زر التلفاز، أخفض الصوت أغنيّه كلياً ألقي بنفسي في مقعدي قريباً من الباب، وبين يدي جهاز التحكم.

تعود إلي زوجتي، من غير أن تتكلم، أقول لها:

"لا تقولي أي شيء"

بعد هنيهة صمت، تتكلم:

"سأعدّ لك كأس زهورات"

"بل فنجان قهوة"

"والضغط؟"

"هات حبة، أشربها قبله"

وتمضي إلى المطبخ.

جهاز التحكم في يدي، وأنا أنتقل من قناة في التلفاز إلى قناة، ولا صوت في درج العمارة، ولا في المصعد، ولا وقع أي خطوة.

*

لا أنسى يوم طردت أمي القط ميسون، كان ذلك قبل خمسين عاماً، بل أكثر.

النافورة تحت عريشة الياسمين ترسل الماء إلى أعلى ليتساقط رذاذاً، وتهمي معه زهرات الياسمين، لتدوّم مثل فراشات صغيرة، ثم تنام على سطح البركة، ويسطع في الجواء عبق التنباك الفاغم يرسله أبي من نارجيلته، يعانق أشذاء زهرات الفل، وقد جمعتها أمي، ووضعتها في صحن بلوري، إلى جوار الوسادة التي يستند إليها أبي.

وفي النافذة المفتوحة على فناء الدار، وضع أبي المذياع الكهربائي الكبير، وترك صوت أم كلثوم يصدح في الجواء رخيّاً هادئاً، وهو ما يفتأ بين حين وحين يقول لأمي:

"اخفضي صوت المذياع"

وهي تقول له:

"ولكن أم كلثوم غالية عليك"

ويرد:

"قولي صوتها، ولا تقولي هي، وحدك أنت الغالية، بعدك لا يغلى أحد، ثم لا تنسي الجيران، لا يجوز إزعاجهم".

وتخفض أمي صوت المذياع، ثم ترجع إلى موضعها على الحصير في فناء الدار قبالة زوجة أخي حسناء، لترمي الودع، وهي تلاعبها دوراً في"البرجيس".

أدنو من أمي، أقعد بجوارها؛ أقول لها:

"اسمحي لي يا أمي برمي الودع بدلاً منك"

وترد:

"لا يا أحمد، هذا الودع حظ، ورميه شطارة، ولا يجوز أن يرمي أحدٌ عن أحد".

"ولكني تعلمت نقل الأحجار، وعرفت الدست من البنج، والشكة من البارة".

ويتدخل أبي:

"لا تشغل بالك يا ولد بالبرجيس، أمك سجلتك في المدرسة، حضّر نفسك، زوجة أخيك ستعلمك".

وترد أمي:

"مازلنا في أول الصيف، والولد"

ويقاطعها أبي:

"أريده من الناجحين، هيا اذهب إلى الفراش"

وينظر إلى ساعة يده، ثم يضيف:

"هيا إلى النوم، الساعة الثامنة والنصف".

أنهض، أتقدم من أبي يمدّ إليّ يده، أتناولها بين يدي الاثنتين، أحسّ بيده كبيرة قوية، أرفعها إلى فمي، أتنسّم عبق التنباك، وعطر الورد، أتحسس العروق الزرق النافرة، والشعرات البيضاء الخشنة، ألثم ظاهر يده، وأنا أشعر بالانتشاء.

"تصبح على خير يا بابا"

أقبل يد أمي، وأمضي إلى غرفتي.

ألقي بنفسي على فراشي الممدودة على الأرض، بجوار النافذة المفتوحة على فناء الدار، أرفع الوسادة إلى مستوى النافذة، أستلقي على بطني، أضع وجهي بين راحتي، وأنا مستند بساعدي إلى الوسادة.

أمّ كلثوم ترسل شجوها الهادئ، يعانقه تغريد الكناري المعلق تحت عريشة الياسمين، وتتحد قرقرات النارجيلة، برمي الودع، لتنساب جميعا مع وسوسات النافورة على سطح البركة، وأنا أتأمل "فلة" قطعتي الشقراء الجميلة، وهي تستلقي إلى جوار البركة، وقد أرخت بطنها على بلاط الفناء، وتركت أثداءها مرسلة، وصغارها الأربعة ترضع بنهم مغمضات العيون.

وتدقّ ساعة الإيوان، تدقّ، تدقّ، أعدّ الدقات، وإذا هي تسع.

أبي ينهض، يتقدم من المذياع، يغلقه.

"لماذا أغلقت المذياع؟"

"ربما كان جارنا يريد أن ينام، ولا تنسي، عنده أولاد صغار"

"ولكن صوته خفيض، حتى أنا ما كنت أسمعه"

"الليل هادئ، وأقل صوت فيه مزعج"

وأسمع وقع خطوات أبي تتقدم من غرفتي، فأستلقي على الفراش، وأرفع الغطاء إلى فوق رأسي.

"هل نمت يا ولد؟"

هكذا يـأتيني صـوت أبـي، فأصـمت، ولا آتـي بحركـة، حتـى أطمـئن إلـى ابتعـاد خطواتـه، أحـسّ بـه يـدور حـول البركـة، أحس بـه يتوقـف، أرفـع رأسـي مـن تحـت الغطـاء، بهدوء، أنظر، أراه يقف قبالة باب الدار، يرمقه بغضب، ثم يعود إلى موضعه أمام النارجيلة.

تسأله أمي:

"هل أغيّر ماء النارجيلة"

ويردّ باستياء

"لا، أنت لاعبي حسناء"

وينفث دخان النارجيلة، وأنظاره متجهة إلى باب الدار.

الآن تنبّهت، طوال السهرة لم أتنبّه، كـان أبـي ينفث دخـان النارجيلة بغضب، وهو ينقل ناظريـه بين بـاب الدار وحسناء زوجة أخي تارة، وتارة أخرى بين باب الدار وقطتي المستلقية هناك بجوار البركة وهي ترضع صغارها.

حسناء، زوجة أخي بسام، هي ابنة خالتي، هي الجميلـة جداً، عنـدما أكبـر سـأتزوج أجمـل منهـا، أخـي بسّـام تـرك المدرسة من زمان، وعمل أجيراً عند خياط، ثم افتتح محـلاً وأصبح خياطاً، أبي يريدني أن أتعلم، قـال لـي مـرة "أتمنـى أن تصبح معلم مدرسـة، تعلّم الأولاد، العلم نـور يـا ولـدي، مهنة العلم أشرف مهنة، تقبض راتبك بالحلال"، أبي لا يقرأ ولا يكتـب، اشـترى لـي حقيبـة ودفـاتر، مـع انتهـاء الصـيف سأذهب مع ابن الجيران إلى المدرسة.

ويفتح بـاب الـدار، أنهـض، أقعد فـي النافذة، أرى أخـي بسام داخلاً، وهو يحمل كيساً ورقياً.

"السلام عليكم"

يلقـي السـلام، وهـو يتقدم مـن أبـي، يمـد يـده إلـى أبـي، ولكــن أبـــي يرفــع بيمنـــاه خرطــوم النارجيلـــة إلـــى فمـــه، ويشيح عنه بوجهه.

ألحظ حسناء وهي تهم بالنهوض، ولكن أمي تضغط بيدها على قدم حسناء، كأنها تقول لها:

"اقعدي، لا تنهضي".

ويتوجه أخي إلى أمي، وقبل أن يفوه بكلمة، تقول له:

"لا تكلمني، أنا لست أمك، وأنت لست ولدي"

أدهش لكلامها، وأهم بالقفز من النافذة إلى فناء الدار، ولكني أملك نفسي، وأظل ثابتاً في النافذة.

ويتقدم أخي من زوجته قائلاً:

"خذي يا حسناء هذا الكيس، اغسلي ما فيه من تفاح وضعيه في صحن أمام أبي"

وتضغط أمي بيدها ثانية على قدم حسناء، وهي تقول لها:

"العبي يا حسناء، العبي"

ثم تلتفت إلى أخي قائلة:

"اترك حسناء، نحن نلعب دوراً في البرجيس، لا تفسد علينا الدور".

ويتكلم أخي:

"أنا سأغسل التفاح بنفسي"

ويردّ أبي:

"اقعد، ولا تغسل أي شيء، لا أنا ولا أمك ولا زوجتك، كلنا، لسنا بحاجة إلى تفاحك"

ويرد أخي:

"والله يا أبي كنت في الدكان، عندي"

ويقاطعه أبي:

"بعد التاسعة لا شغل، عندك زوجة، وبيت، وغداً عندك أولاد"

ويتجه أخي إلى حافة البركة، ليقعد على طرفها، فيصيح به أبي:

"ابتعد عن البركة، لا تقعد على حافتها، انتبه إلى فلّة، فهي أم، وعندها أولاد"

أخي ينهض، خطواته تتردد، يقعد على طرف الحصير، قريباً من أمه وزوجته.

أبي يتكلم:

"يا حسناء، افتحي لنا المذياع، لنرى حظك من أغنية السهرة"

وتنهض حسناء، تفتح المذياع، ويندلح النغم:

"يا ظالمني"

وتعلق أمي:

"الله، الله، صدقت يا أم كلثوم"

أدهش، أول مرة أرى فيها أمي تعجب بأم كلثوم، طالما سمعتها تخاصم أبي، أو تمازحه، في أم كلثوم، بل في أغنيتها هذه نفسها، "يا ظالمني"، "لا أعرف لماذا تحب أم كلثوم؟"، هكذا تسأله، ويرد: "قلت لك خمسين مرة، أنا لا أحبها، أنا أحب صوتها"، وتسأله بإلحاح: "وماذا تحب في صوتها، خمسين مرة تكرر يا ظالمني"، ويرد أبي بنزق: "هي لا تكرر ولا مرة، انتبهي إليها، كل مرة تقول يا ظالمني مختلفة عن المرة السابقة، في كل مرة لها طعم مختلف"، وتؤكد أمي: "ولكن الكلمة هي نفسها، يا ظالمني، يا ظالمني"، ويردّ أبي بغضب: "ولعبة البرجيس هي نفسها، كل ليلة تلاعبين حسناء بنت أختك خمسين دوراً".

وأسمع أبي وهو يقول لحسناء:

"لا، لا، ارفعي صوت المذياع، ارفعيه، حتى يسمع كل الناس، ولا سيما ضعاف السمع"

وترفع حسناء صوت المذياع، فيصيح أبي:

"عشت يا أم كلثوم، وعشت يا حسناء"

ويصمت هنيهة، ثم يضيف:

"حظك رائع يا حسناء، صدقيني، كل مرة أريد فيها سماع أم كلثوم، أقلب عشرين محطة، وأنت من المحطة الأولى يأتيك صوت أم كلثوم".

وعلى الدرجات الهابطة من السطح يظهر القط ميسون، قطّي الأشقر فأهم بالنهوض والنزول إلى فناء الدار، ولكن سرعان ما ألبث في موضعي، وأتذكر غضب أبي، وأنا أرى القط ميسون، وهو يهبط شيئاً فشيئاً، نازلاً نحو فناء الدار، وتنهض فلّة، تاركة صغارها، وتهمّ بالمضي نحو ميسون.

وإذا صوت أبي يصيح:

"لا، فلّة، اقعدي، ابقي مع صغارك، اتركي ميسون اتركيه".

وتصيح أمي:

"هيا، يا ميسون، هيا، أنت طوال اليوم من سطح إلى سطح، تقفز فوق الجدران، وتأتي آخر الليل، وفلّة المسكينة وحدها، ترضع الصغار، ولا تأكل أي شيء، اذهب، هيا"

ويتردّد ميسون برهة، وقد بلغ فناء الدار، وتهمّ أمي بالنهوض، وهي تحدّق فيه بحدّة، فينسلّ بهدوء، يجتاز الفناء، يمضي نحو باب الدار، يقعي وراءه.

ويتكلم أبي:

"يا بسام، انهض، افتح باب الدار، ليخرج ميسون، ليخرج نهائياً إلى غير عودة، لا نريد قطاً لا يرعى زوجته وأولاده".

ينهض بسّام مطأطئ الرأس.

تقفز حسناء إلى أبي، تكب على يده تقبلها، وهي تنشج

باكية:

"يا عمي، أرجوك، سامح ميسون، سامحه لأجلي، هذه آخر مرة، لن يتأخر بعد اليوم".

أكاد أطير من الفرح، هذه زوجة أخي حسناء تشفع لقطي الجميل، يا إلهي، حسناء رائعة، وعندما أكبر، سأتزوج مثلها، لا أظن أني سأجد أروع منها.

*

أسمع صوت المصعد وهو يتوقف، أسمع وقع خطا تتقدم، ووسوسة مفاتيح تنوس. ألوب بعينّي في أرجاء الغرفة، أنهض، أقفل التلفاز، أعبر الممر سريعاً إلى الشرفة.

أحس بباب الدار ورائي يفتح، وساعة الجدار في غرفة الجلوس تدق دقة واحدة، دقة واحدة فقط.

ألتفت بهدوء نصف التفاتة، فأرى ولدي أمجد وهو يدخل إلى غرفته، أرى ظهره، وهو يحمل عليه حقيبته الرياضية، ومضارب التنس.

أميل بجذعي على سور الشرفة، أنثني مطلاً على الشارع، أنثني، أكثر فأكثر، أحس بالشارع يغوص بعيداً بعيداً.

وينفحني عبق القهوة، فألتفت، فإذا زوجتي في باب الشرفة، وهي تقول لي:

"أرجوك، لا تزعج نفسك"

وأردّ:

"ليس لأجلي، بل لأجله، لا تنسي، هو في الصف الثالث الإعدادي، وأمامه امتحان شهادة"

وأمدّ يدي لأتناول فنجان القهوة، فأسمع زوجتي تقول:

"وما نفع الشهادة؟ هل تريده أن يصبح معلماً مثلك؟"

وأسمع صوت ولدي أمجد يعلو، وهو ما يزال في غرفته:

"أمي، جهزي لي الحمام، وهيئي لي العشاء".

أترك فنجان القهوة، آخذ حبة الضغط المركونة إلى جانب الفنجان، وأمضي عبر الممر الضيّق.

أدخل غرفة الجلوس، وأغلق ورائي الباب المطل على الممر، أمد يدي لأضغط على زر التلفاز، فأرى على ظهره قطّاً صغيراً أشقر اللون، هو محض قطّ من فخار، أحسّ أنني أراه أول مرة.

أمدّ إليه يدي، أهمّ بالنقر بإصبعي على فمه عابثاً، فإذا به يكشّر عن أنيابه، ويزأر، وعلى يدي، على وجهي، عليّ، ينقضّ.

←←

من غير كلام

يخـرج مـن مـدخل البنـاء، فتغمـره أضـواء الشـارع ومصـابيح الإعلانـات وصـخب المـارة وضوضـاء الباعـة وضجيج السيارات، ويحسّ للنسيم الصيفي المعطّر بـالأنس والتسلية طعم الشباب والمرح.

ويمضي على الرصيف، وهو يلعن ويشتم.

كل يوم جمعة، يوم الإجازة، تنزل إلى مكتب المحامي، تقعـد فـي مكتبـه سـاعتين، تراجـع معـه ملفـات المؤسسـة ودعاواها وقضاياها، من السابعة إلى التاسعة، أجمل أوقات الأنـس والتسـلية تمضـيها محبوسـاً داخـل غرفـة المكتـب، تراجـع الملفـات تحـت الضـوء العـاكس، تحـرم نفسـك مـن التجوال المرح فـي الشـارع والاختلاط بهذه الأمـواج مـن المتسـكعين جيئـة وذهابـاً أمـام دور العـرض والمحـلات المتنوعـة تتفـرج علـى أحـدث أجهـزة التسـجيل والعـرض وأجمل الأزياء وآخر الكتب والمجلات، تحـرم نفسـك مـن ذلك كله من أجل خمسمائة ليرة فقط في الشهر، من أجل أن تفي بعض ديونك وتشتري بعض ما يمكن شراؤه لزوجتك وأولادك وبيتـك. ولكـن مـاذا يمكنـك أن تشـتري بخمسـمائة ليرة؟

ويمرّ أمام دار للعرض، تشده الصور الملصقة على الجدار، يختلس النظر، يحسّ كـأن أحـداً مـا يراقبـه، وهو وسط الزحام، يدرك أنه لا يليق به أن يمعن النظر في صور

الممثلات، هي ليست له، هي لجيل آخر.

إذا لم تنزل إلى مكتب المحامي، فهل يمكنك حقيقة أن تنزل كل أسبوع للتسكع؟ ووراءك زوجة وثلاثة أولاد وبيت، وأنت قد تجاوزت الأربعين، أيام الشباب والتسكع والتسلية ماتت.

وينعطف، بائع العصير والمرطبات يجتذبه، يقف يتملى أهرامات صغيرة من البرتقال والتفاح والعنب شيِّدت بإتقان، وأصوات الخلاطات، وهي تصنع الخليط، تدعوه، وأمام المحلّ شلّة من الشباب، أربعة أو خمسة، يحتسون العصير، ويتبادلون الطرائف على الرصيف ويضحكون.

يحسّ تيبّساً في حنجرته، يحدق في لائحة الأسعار.

لا عصير التفاح ولا البرتقال ولا العنب، ولا الخليط على الإطلاق، لا يمكن أن يفكر في شيء من ذلك البتة. وكيف يشرب هو وحده ويترك زوجته والأولاد في البيت لا يشربون شيئاً؟!

ويمشي، يختلط بالزحام، يسلّم نفسه إليه، يحلّ فيه، مرخياً لقدميه العنان، تسيران به حيثما تسيران، لعله ينسى، لا يودّ العودة إلى البيت قبل أن ينسى.

ويرجع بضع خطوات، ليقف أمام مكتبة، ينظر إلى عناوين الكتب.

هي المكتبة الوحيدة التي بقيت في هذا الشارع، كانت فيه أربع مكتبات، ولكنها تحولت إلى بيع الثياب وأجهزة التسجيل والفيديو، كنت تنزل إليها في الأسبوع مرة أو مرتين، أيام الشباب، تقرأ عناوين الكتب، ولابد من كتاب تشتريه في كل مرة، والآن، حتى العناوين أصبحت ممجوجة وباهتة، تنظر إليها، ولا تكاد تراها، هي مجرد أغلفة لماعة، وصور جذابة.

كنت تنعى على الذين يعجبون بالماضي، ويستنكرون ما بالحاضر من تطور، وكنت ترد على دعاواهم، وتناقشهم وتطيل معهم الحوار، وتعدّهم من جيل قديم لا يرى الخير

إلا في القديم، ولكن ها أنت ذا الآن تجد نفسك وقد أصبحت مثلهم.

ويهمّ بالمضيّ، ولكن ينجذب إلى كتاب، كأن لم يره من قبل، "الفضيلة: أو بول وفرجيني"، في طبعة أنيقة، وغلاف ملون لمّاع، عليه صورة لطفل يمسك يد طفلة، ويجريان معاً في حقول خضراء شاسعة.

الكتاب الذي قرأته وأنا فتى، أظنه أول كتاب أشتريه من مصروفي وأقرؤه، وأحتفظ به، قرأته عدة مرات، ثم لا أعرف من استعاره مني ولم يردّه إليّ؟ كان في طبعة صغيرة، وكنت أضعه في جيبي، كم كنت أحب وصفه للكوخ والسهول والوديان، أما وصفه لغرق الباخرة فلا يمكن أن أنساه، وفي الصف الثالث الثانوي، بعد أكثر من ست سنوات، قال لنا أستاذ اللغة العربية إن أسلوب المنفلوطي غير جميل، فهو يقوم على الحشو والتكرار والترادف والمبالغة، لم أصدق، ولم أقتنع.

ويجد نفسه داخل المكتبة، وهو يطلب من البائع الكتاب، فيناوله إياه، ينظر فيه، يقلب أوراقه، وإذا هي صفراء هشّة من النوع الرخيص جداً، ويسأل البائع:

"هل عندك طبعة أخرى للكتاب؟"

"لا"

"وكم ثمنه؟"

"مئة وخمسون ليرة"

"يا إلهي"

ويضع يده على جبينه، ثم يقول للبائع:

"هل تصدق أنني اشتريته بنصف ليرة، نصف ليرة فقط"

ويرد البائع ضاحكاً:

"أعرف ذلك، أنا هنا كنت أبيعه بنصف ليرة، نعم هذا

صحيح، وأنا بنفسي، لا أبي ولا جدّي، ولكن قل لي منذ كم عام؟!"

"ربما منذ عشرين سنة"

"لا، أنا أقول لك، منذ ثلاثين سنة، أكثر من ربع قرن، بالتأكيد، وربما أنا نفسي بعتك إياه، أنا عمري أكثر من أربعين سنة، كنت وأنا في الإعدادية أعمل هنا في المكتبة، كنت أساعد أبي بعد الانصراف من المدرسة، ما رأيك؟!"

ويرد مستسلماً:

"نعم، نعم، العمر يمضي"

ولكن لا يعقل، أنا أعمل ساعتين بل أكثر، في يوم عطلتي، أنزل إلى مكتب المحامي كل شهر أربع مرات من أجل خمسمائة ليرة؟! وكتاب واحد ثمنه مئة وخمسون ليرة؟ مؤلفه مات ومترجمه مات وكل الورثة ماتوا، شيء عجيب، حتى الكتاب أصبح سلعة؟!

وهو يهمّ بالخروج، يدخل المكتبة رجل في عمره، موفور الصحة، يحمل كتاباً أو كتابين، يتبادلان النظرات هنيهة، ثم يتلاقيان في تحية دافئة

"أهلا فؤاد"

"أهلاً، أهلاً منير"

وبعد أسئلة متبادلة للاطمئنان عن العمل والبيت والأولاد وذكر لأيام الزمالة القديمة في الجامعة، يعلّق فؤاد:

"جميل أن أراك تتردد على المكتبة، هذا يعني أنك مازلت كعهدك القديم، متعلقاً بالقراءة والكتاب"

وقبل أن يجيبه بشيء، يسأله:

"هل لفت نظرك كتاب ما؟"

ويردّ:

"وددت شراء نسخة من كتاب "الفضيلة"، ولكن فوجئت بالثمن"

"أي كتاب في "الفضيلة" تقصد"؟ ومن مؤلفه؟ وبعد ذلك هل تقدمت بك السن هكذا سريعاً حتى بدأت تقرأ في الفلسفة والحكمة؟"

"لا، لا، أعني "الفضيلة" للمنفلوطي"

ويضحك فؤاد ضحكة طويلة، ثم يعلق:

"أوه، هذا كتاب أصبح ذكرى، أنا لا أنصح به حتى لأولادي الصغار".

الظمأ يستبدّ به، يكاد يختنق، يجد نفسه مضطراً للقول:

"لا، الأمر مجرّد مصادفة، رأيت في الواجهة طبعة جديدة من الكتاب، فذكرني بأيام الطفولة، فوددت شراء نسخة لقراءته من جديد"

"وهل عندك متسع من الوقت لقراءته؟"

"الواقع في غياب الكتب القيّمة والجادة يضطر المرء أحياناً إلى العودة إلى الماضي"

ينظر إليه فؤاد مدهوشاً، ثم يردّ:

"ما هذا يا منير؟ لم أعرف فيك من قبل مثل هذا التشاؤم؟! الكتب الجديدة والقيمة والجادة ليست أقل من مثيلاتها في القديم، إن لم تكن أكثر، بل هي أكثر حقيقة"

"لا أختلف معك من الناحية النظرية، ولكن"

ويصمت، يحسّ بالاختناق، فيضيف فؤاد:

"ما رأيك في تمضية بعض الوقت في المقهى، هناك مجموعة من الأصدقاء المهتمين بالأدب والنقد، تعرف أكثرهم، وأنا أدعوك إلى فنجان قهوة معهم"

يتردد، ينظر في ساعة يده، ثم يرد:

"أشكرك، أنا اليوم مضطر للعودة إلى البيت مبكراً"

ويمدّ إليه يده مودّعاً، فيقول له فؤاد:

"على كل حال نحن نسهر كل ليلة في هذا المقهى،

سهرتنا تبدأ بعد التاسعة، ويسرّنا أن تنضم إلينا في أي وقت تشاء، واعتبر الدعوة مفتوحة"

يشد على يده، يلتفت إلى صاحب المكتبة، يتناول منه صحيفة يومية، ثم يخرج.

وينطلق في الزحام، يغذ الخطا، الأضواء والضوضاء والوجوه والأصوات وحوش تطارده.

ليس لك سوى بيتك وزوجتك وأولادك، كل شيء من حولك يدور ويتحرك، وأنت مشغول، تلهث ساعياً وراء لقمة العيش، لا ترى شيئاً، تنظر ولا ترى، وإذا ما رأيت، أدركت أنك عاجز، مقيد.

وفي موقف الحافلة ينتظر مع المنتظرين، حتى إذا ما أقبلت، اندفع مع الجموع، ويجد نفسه منساقاً بين الأكتاف والأيدي والأجساد المتدافعة، وإذا هو بعد جهاد وعراك ودفاع داخل الحافلة، محشور في مؤخرتها، روائح الأجساد المتعرقة تزكمه، يكاد يختنق.

وتتجاوز الحافلة عدة مواقف، وهي لا تتسع لمزيد، ثم تضطر إلى الوقوف كي ينزل منها بعض الركاب، ويندفع إليها آخرون.

ويتزحزح من موضعه بعض الشيء، يحاول الاقتراب من النافذة، لعله يتنسم الهواء.

وعلى الرصيف، وهو داخل الحافلة، يرى بائع سوس، يحمل قربته الجلدية على ظهره، وقد لف حول وسطه مئزراً ورديّا مخططّاً بالأزرق، وبين يديه طاسات نحاسية صفراء، ينقر بها نقرات موّقعة.

ينفجر إحساسه بالظمأ، حنجرته تجف، يودّ لو ينزل من الحافلة ليشرب السوس البارد، ولكن الحافلة تنطلق.

ووراء الباب، وهو يدخل المنزل، تهمس له زوجته:

"أخي جاء لزيارتنا، هل أحضرت معك بعض المثلجات؟"

ويرد:

"للأسف، ليس عندي علم بزيارته"

"عد إلى السوق حالاً لإحضار بعض المثلجات أو الفواكه"

"قدّمي له أي شيء من البيت"

"ليس عندنا سوى القهوة، وقدمتها له"

ويخطو نحو الداخل، وهو يقول لها:

"سندعوه ليتناول العشاء معنا"

ويتصافحان، الوجه المورّد ينزّ عرقاً، والبطن البارز المتخم يرتج لدى كل كلمة أو حركة.

"منزلكم خانق يا منير، يحتاج في الحقيقة إلى مكيف، هناك مكيفات جديدة نزلت إلى السوق، وبعضها صحراوي ممتاز جداً، وزهيد الثمن، أنا اشتريت اثنين، لغرفة الجلوس ولغرفة النوم".

ويردّ بهدوء:

"سأشتري واحداً"

ويضيف الأخ:

"حدّثتني أختي عن نزولك كل يوم جمعة إلى مكتب المحامي، مازلت تحلم بالعمل في المحاماة؟"

"لا، أبداً، حتى قبل تخرجي ما كنت أحلم بالمحاماة، مدير المؤسسة فقط هو الذي كلفني بمساعدة المحامي في قضايا المؤسسة ومشكلاتها ودعاواها"

"وهل التعويض جيد؟"

"أنا لا أنزل في الواقع سوى مرة واحدة في الأسبوع، وأعتبرها تسلية أو نزهة".

ويضحك، فيتحرك بطنه، وترتج اللغدد تحت ذقنه، ثم يعلّق:

"أيّ تسلية وأي نزهة؟ نصحت لك منذ زمن، اترك الوظيفة في المؤسسة واعمل معي، الزمن تغيّر، كان للوظيفة عزّها ومجدها أيام زمان، الوقت الآن للتجارة، لا محامي ولا طبيب ولا أستاذ جامعة، حتى الشهادات العالية أصبحت لا شيء".

ويصمت، يمسح العرق الذي ينزّ على جبينه، ثم يضيف:

"على كل حال أنا فتحت مكتباً جديداً في الحيّ المجاور لكم، سوف أوسّع مشاريعي، وأنا ما عدت أعمل بنفسي، كل مكتب أضع فيه موظفاً، وأجعل له حصة من الأرباح..."

شيء ما ينكسر في حنجرته، يسمع صوت طق، يضغط حنجرته بإبهامه وسبابته، ينهض، ليست قضية ظمأ.

وينهض شقيق الزوجة، وهو يمدّ يده إلى كيس ملقى بجواره على المقعد الطويل، يحمله معه.

لم يتنبّه من قبل إلى الكيس، ينظر، فإذا فيه خمسة أشرطة للفيديو، يدعوه إلى تناول العشاء، وتلحّ أخته عليه، فيردّ:

"شكراً، هذه ليست زيارة، في الحقيقة مررت بمركز الفيديو، واشتريت خمسة أشرطة، ماذا سنفعل في السهرة؟!"

ويلتفت إلى منير ليقول له:

"هل تظن أني سأقعد للقراءة مثلك؟!"

"لا، اطمئن تركت القراءة"

"إذن، كيف تمضي السهرة؟ أنا لا أرى عندك فيديو، هل تصلب نفسك أمام برنامج التلفزيون؟!"

"لا، أنام مبكراً، حتى أكون على رأس عملي في الثامنة"

ووراء الباب يقول له:

"إذا شئت العمل عندي فقدّم استقالتك من الوظيفة، على كل حال لن آخذ منك جواباً الآن، أتوقع زيارتك غداً في مكتبي الرئيسي بعد السابعة"

وقبل أن يخرج يقول لأخته:

"حاولي إقناعه، فأنت أقدر مني، وأول شهر يعمل فيه عندي يستطيع شراء جهاز فيديو، لا تترددي، حاولي إقناعه".

وفور خروج الأخ، يمضي إلى المطبخ.

يأخذ رشفة من ماء مثلج.

الحنجرة تطقطق، المطبخ والثلاجة والجدران والزوجة كل شيء أمامه جامد. ينظره ولا يراه، يراه ولا يدركه، يحسّ أنه ينادي، ولكن ما من صوت أو صدى، ما من مجيب، النور والصمت والسكون كل أولئك أشياء يحسّها، يراها، لوحة بيضاء، إشراق نور وضاء، كتاب حريري يرفّ شفاف اللون زاهي الصور لؤلئيّ الورق، وخطوط تضيء ترسم حروفاً كأنها اسمه.

*

ضحى اليوم التالي، يفتح عينيه، يشقهما شيئاً فشيئاً، يحسّ أنه منهك جداً، مرخى، لا يتحرك، وثمة دبيب في عروقه، خدر، إعياء، جوع، يحس أنه يتكلم ولا أحد يسمعه، بل يحس أنه يتكلم ولا ينطق، يتكلم من غير صوت.

يذكر الضوء الباهر الذي اخترق جفنيه المغمضين، أحسّ شيئاً ما يدغدغ حنجرته، أو يشقها، هو لا يتألم، بل يلتذ، بل يحار، ثم ينام.

ولكن، ما هذا الألم الآن؟ ألم جديد في الحنجرة، وثمة لفافات حول عنقه يحسّها وكأنه يلمسها، وإن كان لا يتحرك.

ويرى زوجته وإلى جانبها رجل في صدرية بيضاء، وعلى عينيه نظارة طبية. الرجل يقول لها:

"لا تكلّميه، ولا تسمحي له بالكلام، بهدوء أفهميه ماذا حصل، بالإشارة فقط، إذا أمكن"

يرى زوجته وهي تودّع الرجل عند الباب، ثم ترجع، وهي تمسح الدموع تحت عينيها.

ينظر إليها، يدرك أنه لا يستطيع الكلام.

يغمض عينيه، وهو يقول لها، ولكن من غير أن ينطق أو تسمع.

الآن، أذكر، أحدث الأطباء فتحة في حنجرتي.

كنت أنزل إلى المحامي، وأنزل إلى السوق، وأعمل وأتعب، وأشقى، وأحمل هموم البيت والزوجة والأولاد والديون، وأتكلم.

ومنذ اليوم، سأفعل ذلك كله.

ولكن من غير كلام.

←←

رزمة أوراق

-1-

يدخل أمجد على أمه في المطبخ، يسألها:

"أمي، تأخرت علينا اليوم بالغداء؟".

تردّ، وهي ترفع الغطاء عن القِدْر:

"الحق معك يا أمجد، المعتمد تأخر في تقبيض الرواتب، وأنا تأخرت في السوق، حتى اشتريت لكم الرز والسمن وبعض الخضر".

ويسأل بفرح:

"أمي، أنت وعدتني بحذاء، جديد، حذائي اهترأ، انظري".

ويشير إلى حذائه، فتردّ الأم على الفور:

"الشهر القادم سأشتري لك حذاء"

"وهذا الشهر؟"

"هذا الشهر دفعت للمصرف أقساط الأشهر الثلاثة المتراكمة".

"وما بقي معك ثمن الحذاء؟"

"ولا أجرة المواصلات"

"كـل مـرة، كـل مـرة المصـرف، والأقسـاط، لمـاذا المصرف يا أمي؟"

"حتـى نسـكن فـي هـذه الـدار، اسـتدنّا ثمنهـا مـن المصرف"

أمجد يطرق، يصمت، ثم يسأل:

"صحيح، أمل ستصبح معلمة؟"

"نعم، ستأخذ ساعات في مادة الرياضيات"

"وتأتي إلى مدرستي"

"لا، أنـت يـا أمجد فـي الصف السـادس، العـام القـادم أنت ستذهب إلى مدرستها، وتدرّسك الرياضيات في الصف السابع".

ويفتح الباب، وتدخل أمل، فترحب بها أمها:

"أهلاً أمل، جئت في الوقت المناسب، تعالي نتنـاول الغداء، قبل ذهابي إلى المستشفى، هيا، الطعام حاضر"

ويسأل أمجد:

"صحيح صرت دكتورة، يا أمي؟"

وترد الأم وهي تضحك:

"لا ياحبيبي".

"وعملك في المستشفى؟"

"عملي في المساء فقط، من الثالثة إلى التاسعة، في قسم الاستقبال، أستقبل المرضى، وأسجّل أسماءهم".

وتسأل أمل:

"متى سيدفع لك أول راتب؟"

"في آخر الشهر"

"وماذا سنشتري به؟"

ترسل الأم زفرة طويلة، وهي تسكب الطعام في

الصحون:

"الرواتب الأربعة أو الخمسة الأولى كلها يا بني لسداد الديون، لا يمكننا شراء أي شيء".

وتسأل أمل:

"والأدوات الهندسية، وطاولة الرسم، متى سنشتريها؟"

ويرد أمجد:

"قولي لبابا"

وتتدخّل الأم:

"لا، لا يا ابنتي، لا تقولي لوالدك أي شيء، والدك، كان الله في عونه، السيكارة تركها، لا لشيء، إلا لأن الراتب ما عاد يكفي، لذلك، لا تسأليه أي شيء، وتعالي تناولي غداءك".

وترد أمل:

"تناولي أنت غداءك يا أمي، واذهبي إلى المستشفى، أنا سأنتظر أبي حتى يرجع".

ويتكلم أمجد:

"أنا سآكل الآن مع أمي، وسآكل أيضاً مع أبي".

-2-

أمام مدخل البناء يلتقي أبو عماد جاره أبو حسّان، يحيّي كلّ منهما الآخر، يقفان، يتحدّثان.

"أنا آسف يا أبو عماد، ما استطعت أمس مشاركتكم في السهرة، ماذا قرّر الجيران؟".

"اتفقوا على تركيب باب للعمارة"

"شيء جيد، وكم سيكلّف؟"

"أكد الجميع استعدادهم لتحمّل المصاريف، مهما

كانت".

"ولم يعترض أحد؟".

"أبداً، أبداً، ولكن جارنا الأستاذ أكرم"

"هل اعترض؟"

"لا، لم يحضر لقاء سكان العمارة"

أبو حسّان يطرق قليلاً، ثم يتكلّم:

"جارنا الأستاذ أكرم موظف، معلّم مدرسة، راتبه قليل، أنا أقترح إعفاءه من المصاريف، وعدم مطالبته بأي شيء".

"ولماذا نعفيه؟ مثله مثلنا، حتى نسخة المفتاح الخاصة به، سوف نأخذ منه ثمنها".

ويصمت هنيهة، ثم يضيف:

"ولا تنس، زوجته موظفة، أين راتبها؟ وهي بدأت تعمل في مستشفى، وهو يعمل بعد انصرافه من المدرسة في المحاسبة، في مخزن أبو جميل، وليس عنده سوى بنت وولد؟"

ويردّ أبو حسان:

"أنا أعرفه أكثر منك، وضعه بائس، أنا سأطرح فكرة إعفائه من المصاريف في اجتماع سكان العمارة الشهر القادم، الاجتماع سيكون في بيتي".

"نعم، هو في بيتك، ولكن لا أظن أي أحد من الجيران سيوافق على إعفائه، أنا شخصياً".

ويقاطعه أبو حسّان:

"على كل حال، لا تستبق الأمور، اتركها إلى الشهر القادم".

-3-

في دكان الجزار أبو خالد، ينادي أبو خالد أجيره:

"يا عصام، هات دفتر الذمة"

ويناوله الأجير الدفتر.

أبو خالد يفتح الدفتر، يقلب الصفحات، يحصي ما تراكم على هذا وذلك من الجيران من ديون.

"لا بأس، اليوم أول الشهر، كل الموظفين قبضوا رواتبهم سنرى كم سيدفع لي كل واحد".

هكذا يتكلم، وكأنه يريد لأجيره أن يسمع، ثم يلتفت إليه ليقول له بحدّة:

"والله، إذا ما وفاني كل واحد من هؤلاء الموظفين كلّ ما عليه من دين، فلن أعطي أي واحد منهم ولا مئة غرام".

ويغلق الدفتر مغتاظاً، ثم ما يلبث حتى يفتحه، ويتكلم، وهو يشير إلى إحدى الصفحات:

"هذه صفحة الأستاذ أكرم، الشهر الماضي ما وفاني غير نصف ما عليه من دين، وهذا الشهر أخذ ضعف الشهر الماضي، واليوم، يأتي ليدفع لي، ماذا سيدفع؟ أنا أعرف، هذه هي عادته، والله، الشهر القادم لن أعطيه، ولا مئة غرام".

يقذف القلم من يده، وهو يرسل زفرة، متطلعاً إلى الشارع، كأنه يترقب قدوم الأستاذ أكرم.

ثم يقهقه ضاحكاً، وهو يقول مخاطباً أجيره:

"هل تعرف يا عصام، هذا الأستاذ أكرم، كنت أصرخ وأقول ما وفاني ديني، والله شيء غريب، هذا الرجل، هو وزوجته، وابنة وابنته، أربعة أشخاص، طوال الشهر، ما استهلكوا غير... غير... والله شيء لا يصدق، تعال انظر، كان الله في عون الموظف".

ويعلّق عصام:

"ولكن هو أستاذ، وزوجته موظفة، وهو يعمل في المحاسبة بعد انصرافه من المدرسة، وزوجته بدأت كما سمعت تعمل في المستشفى".

ويرد أبو خالد:

"لا، لا، لا تحسده يا عصام، أنت وحدك تأخذ أجرة أكثر منه ومن زوجته، كان الله في عونه، وأنت ما درست ولا تعبت".

-4-

في غرفة الآذنين، يدخل عبدو الآذن على زميله محمود، يبادر إلى سؤاله:

"جمعت يا عبدو ثمن القهوة والشاي من الأساتذة؟"

ويردّ عبدو بتذمّر:

"والله، أنا قرّرت ترك القهوة والشاي، شغلنا مع الأساتذة كله خسارة، يكفينا بيع الكاتو والشيكولاته والعلكة للطلاب، خذ، تفضل، هذا كل ما جمعته من كل الأساتذة".

"الحق معك يا عبدو، نبيع للطلاب في اليوم أكثر مما يشرب الأساتذة كلهم من قهوة أو شاي طول الشهر".

ويضيف عبدو:

"هذا الشهر، الأستاذ أكرم ما شرب أي فنجان قهوة، قال: ترك السيكارة، ولا يريد شرب القهوة، حتى لا تذكره بالسيكارة".

ويعلق محمود:

"جميل، طالب في الصف السابع، كل يوم يشتري، مثلما تعرف، أنا نفسي لا أكاد أصدّق".

"لا تنس، جميل أبوه تاجر، ماهو موظف مثلي ومثلك أو مثل هؤلاء الأساتذة الدراويش".

"ولــذلك قــررت، لا قهــوة ولا شـــاي بعــد اليــوم للأساتذة".

"الحق معك، يا محمود، وأنا مثلك قررت".

ويصمت هنيهة، ثم يتكلم:

"ولكن لا تنس، كما قلت، الأساتذة مثلنا، نحن الموظفين، وما هم أحسن منّا، وواجبنا أن يعطف بعضنا على بعضنا الآخر".

"إذن، غيرت رأيك؟"

"نعم، سنقدم لهم القهوة والشاي، على الأقل من باب الشفقة عليهم والعطف".

-5-

على الرصيف يمضي الأستاذ أكرم.

قبضته في جيبه، مشدودة على الراتب، يمسك به بقوة، يده الأخرى مدلاة إلى جانبه، يحمل بها حقيبته.

مطرقـاً يمضــي، خـافض الـرأس، شـارد الـذهن، خطـاه تهيم تائهة.

مـاذا يمكـن أن أفعـل؟ ليتنــي لـم أقـبض الراتـب، مـاذا سأفعل به؟ كيف سأوزعه؟ ضرسي منذ ثلاثة أشهر يؤلمني، وأنا لا أراجع الطبيب، بعد شهر زفاف شقيق زوجتي، هي بحاجة إلى ثوب، أنا أعرف، هي لا تطلب، ولكن لابد، أمل بحاجـة إلــى أدوات هندسـية، وطاولــة رسـم، حـذاء أمجـد مهترئ، لا أحد منهم يطلب منـي شيئاً، أمهم توصيهم، أنا أعرف، ولكن ما الفائدة؟ جاري الجزار ما عدت أستطيع المرور أمام دكانه، جيراني في العمارة يجتمعون كل آخر شهر عند أحدهم، وأنا أتغيب، لا أعرف، لا أعرف...

هل أسرق؟ هل أنهب؟ هل أرتشـي؟ كيـف أفعل وأنـا طول عمري...؟ منذ سنتين وأنا أعمل بعد الانصراف في

المحاسبة، أسهر أمام الدفاتر، أراجعها، أدقق فيها، والمحصّلة لا شيء، أمل في السنة الثانية من كلية الهندسة، هل أطلب منها ترك الجامعة والالتحاق بأي وظيفة؟ هل أجبر أمجد على ترك المدرسة، وهو الناجح والمتفوق، ليعمل أجيراً عند الجزار؟

-6-

يقرع الباب، ويدخل:

"أهلاً، أهلاً بالأستاذ أكرم، تفضل"

"شكراً، شكراً، فقط مررت بك لأعرف جواب الموجّه الاختصاصي؟".

"آه، هو صديق عزيز، كما قلت لك، وهو صادق المودّة، وقد حدثته لأجل ابنتك، ورغبتها في بعض الساعات، يكلفها بها، ولكن، للأسف، اعتذر، أقسم الأيمان المغلظة، أنه لا شواغر عنده".

"شكراً أرجو ألا أكون قد أحرجتك، اعذرني، صدّقني، طوال حياتي لم أطلب من أحد أي مساعدة، ولولا أنك أعز صديق عندي، لما طلبت منك هذه المساعدة، مرة أخرى، أنا آسف، وأرجو أن تعذرني، أتمنى ألا أكون قد أحرجتك".

"على كل حال، اطمئن، وعدني الموجه الاختصاصي خيراً، أكّد لي أنه سيكلفها بأربع ساعات في مطلع العام الدراسي، القادم، وهذا أفضل لها، اتركها السنة تتفرغ للدراسة، لتحقق النجاح".

يكرر شكره، يكرر اعتذاره، ويخرج.

-7-

مرة أخرى، الرصيف يمتص خطاه

أين الطريق؟ إلى أين سأمضي؟ ماذا سأفعل؟ هل سدت

السبل؟ هل أنا غبي؟ هل أنا جاهل؟ ما ذنبي؟ ماذا أفعل؟ هل أخبط بيدي على طاولة المدير؟ أصفع وجهه، أصيح به، ولكن؟ هل أخلع ثيابي؟ أقف في هذا الشارع عارياً؟ ليجتمع الناس من حولي، فأصيح بهم، أقول لهم.. ولكن؟ ماذا أفعل؟ هل أتسلّق برج الإذاعة؟ أرمي بنفسي من فوق؟ أو أرمي براتبي، أصيح، أقول لهم: خذوه، فهو... فهو...؟ لا أعرف ماذا أقول؟

فجأة يستوقفه نداء.

يرجع بضع خطوات، يقف أمام البائع الأعمى، يحدّق فيه، يتملاّه، ينظر في رزمة الأوراق التي تمتد بها يده، يغري بها المارين، وهو ينادي:

"الدنيا حظوظ، الدنيا حظوظ، جرّب حظك".

-8-

خطاه تهبط ثقيلة على الدرجات العشرين النازلة إلى قبو في أسفل العمارة، حيث مأواه.

الدنيا عقل وعمل، هكذا كنت أعتقد، كنت أظن، كنت أتوهم، ولكن الآن عرفت، صدقت يا موزع الحظوظ، ليس حلاً، أنا أعرف، ولكن سأجرّب، لتكن مرّة في العمر، مرة واحدة، لم يجرّبها أحد مثلي من قبل، إمّا وإمّا، ليست جريمة، بل لتكن جريمة، أنا سأرتكب هذه المرة جريمة، وليكن ما يكون، آلاف الجرائم ترتكب كل يوم، ولتكن هذه واحدة، المثقف فيك مات، اقتله، لا تندم، أنت الآن موظف، محض موظف، ولا شيء.

-9-

في مدخل البيت، وراء الباب، تستقبله زوجته، وهي تهم بالخروج:

"إلى أين؟"

"إلى المستشفى"

"تعالي، لا تذهبي، انتظري"

يُخرج من حقيبته رزمة أوراق، يقول لها:

"اشتريت بالراتب كله رزمة أوراق الحظ، أرقامها متسلسلة، سأرى حظي هذه الليلة، لذلك لا تذهبي، اقعدي، سنشاهد معاً نتائج السحب على شاشة التلفزيون"

"ولكن"

"أعرف، أعرف، ولكن ماذا أفعل؟".

يهرع إليه من المطبخ أمجد وأمل

"أهلاً بابا"

"نحن بانتظارك، تعال، لنتناول الغداء معاً".

-10-

ما يزال في مدخل البيت، وراء الباب، يحدّق في زوجته، يحدّق في أمجد، يحدّق في أمل.

وفي فضاء المدخل الضيق، يقذف بالرزمة، وعلى أرض القبو الرطبة، وبين الأقدام، عند الأحذية، ومن غير أن تحلّق في الفضاء، أو ترف، تسقط كل أوراق الحظ.

←←

ذهاب... وإياب آخر

إلى صبري موسى

السكرتيرة تغزل الصوف، يداها تتحركان برتابة وسرعة، في الحر القائظ تغزل الصوف، السيخ في يدها يخز حنجرتك، وليس في الغرفة غير كرسي حقير شاغر، والمقاعد كلها مليئة بالمنتظرين، يد تحمل مصنفاً، تنقله إلى اليد الأخرى، ويد تمسح العرق عن الجبين، ويد اشتبكت أصابعها بأصابع اليد الأخرى، والوجوه ضائقة مكفهرة مربدَّة، وأنت تتصبب عرقاً، وتختنق.

"أرجو السماح لي بمراجعة السيد المدير".

"الموضوع؟!".

"خاص، ضروري، خاص جداً".

"تعال غداً".

"أنا قادم من قرية في أقصى الشمال، ويجب أن أرجع في قطار الساعة الثالثة".

"انتظر إذن، رقمك 15".

المروحة في السقف تدور، والنافذة تنفث حراً لاهباً، والسكرتيرة تغزل الصوف، تغزل، وصدرها المليء، يرتج، امرأة بين الرجال، ولكن لا أحد يوليها اهتماماً، الوجوه مكفهرة، الأعين تنظر إليها، ولكن في النظرة ضيقاً،

عداء، كرهاً، ويداها لا تهدأان.

"هل يطول انتظاري؟!".

"لا أعرف المدير في اجتماع مع لجنة تفتيش عليا".

أحد المنتظرين يحدق فيك، ثم يحدق في المروحة، لعله يسخر منك، أو يشفق عليك، ويحس بالغبطة، لأن دوره في الدخول على المدير قبلك، ويدخل الآذن، فيميل على السكرتيرة ويهمس لها، فتضحك، ويداها تتابعان الحركة الدائبة، وهو ما يزال يميل عليها ويتحدث، والأصباغ في وجهها تحللت وعلاها الدهن.

*

حملت والدك في سيارة قبل أن يمد خط القطار، عشر ساعات سارت بك وبه السيارة، وهو يئن ويشكو، مشافي العاصمة مجهزة بغير ما تجهز به مشافي المدن الأخرى، وغباء طبيب القرية، هو الذي جعل الداء يستفحل، وفي قاعة الانتظار أعطتك الممرضة رقماً، وقالت لك انتظر، ووالدك يحتضر، ولكنك ستنتظر.

كان المرضى يملؤون قاعة الانتظار، وجوه شائخة مزقها المرض، يد على صدر يختنق، ونفس يسحب بصعوبة، وسعال مدمى، وأنين مقيت، وشكوى ضجرة، وروائح مرض وعرق ودواء، وهي تخطر بين المرضى بثوب أبيض، مفتوح عن صدر مفعم بالحياة، وشفتان تنضحان رغبة، كنت دون العشرين، وكان والدك على كتفك يئن ويشكو.

*

"اسمح لي بالكرسي".

الكرسي للآذن، وأنت قعدت عليه من غير استئذان، وكتل الأجساد هناك تنتظر، فلتسند ظهرك إلى الجدار، الجدران دائماً فضية اللون، كئيبة، يعلوها القتام، والصبغ

الأحمر في شفتيها قان، وأهدابها السود مرسلة نحو الصوف وهي تغزله، وصوت المروحة يطن في أذنيك، هل نامت، أم هل نمت أنت، وهذا أحد المنتظرين يضجر، فيخرج.

"تفضل اقعد هناك".

صوت رخيم، وإشارة يد رقيقة، وإثارة أنثوية مغرية، وأنت ابن ريف أسمر، ولكنها تشير إليك ثانية، لا لم تكن إشارة يدها رقيقة، لقد ضاقت بك وأنت تنظر إليها، وهي تزجرك، يجب أن تطيع، فقد تمنعك من الدخول على المدير.

وتهب واقفة، وتتجه إلى غرفة المدير، وقد أحست بحركة وراء الباب، ثم يفتح جانب الباب، فتتسرب برودة رطبة، تنجذب إليها، وتنهض، كالرطوبة التي تتسرب إليك من البئر المحفورة في فناء الدار، ويخرج المدير نضر الوجه، مديد القامة، لعله ليس المدير، يخرج أربعة، بل خمسة، كلهم في نضارة وحيوية، اثنان يضعان النظارات، وفي الأيدي حقائب.

"حضرة المدير أنا...".

"تفضل هذا هو المدير، وليس أنا".

"أنا قادم من أقصى الشمال، وعندي قضية مهمة، ويجب أن أرجع في قطار الثالثة".

"انتظر".

"أيها السادة، لا تؤاخذونا، تأخرنا في الاجتماع مع السيد المدير، ولكن كنا مجتمعين لأجلكم، والسيد المدير سيستمع إلى قضاياكم وسيحلها جميعاً، وأرجو إذا سمحتم أن يبدأ بهذا القادم من الريف، فأنتم كما يبدو لي من البلد".

"قضيتي في كلمة واحدة: رشوة".

"لا، هذا مستحيل، السيد المدير، وأعضاء اللجنة، وأنا رئيس اللجنة، سنحقق في هذا فوراً، وأمام جميع

السادة المراجعين، ولو أدى هذا إلى تأخيرهم، أخبرني، من أخذ منك رشوة، ما اسمه؟!".

"لم يأخذ، ولكنه طلب".

"من؟"

يجف عرقك، وقد وضع الرجال الحقائب، واستعدوا جميعاً لوقوف قد يطول ساعات، ورئيس اللجنة مهذب، لطيف، أكثر أنوثة من السكرتيرة، كم تتمنى لو تطبع على وجنته قبلة، والمدير يخلع نظارته، ويمسحها، والسكرتيرة، تنظر إليك بامتعاض، بل بإعجاب وتقدير، فقد انتصرت ستمحق ذلك الموظف، وستحدث طلابك عن الرشوة، وستوضح لهم معناها، ستحدث أهل القرية، لو كان والدك على قيد الحياة لحدثته، ولكنك بانتصارك على ذلك الموظف ثأرت لموته في المدينة، وها أنت الآن وحدك، والذين ينتظرون يحدقون فيك، ستؤخرهم، ولكنك ستنتصر لأجلهم، إنهم يتطلعون إليك بإعجاب، وستلقى منهم التأييد والعون.

"لا أعرف اسمه، موظف في الديوان".

"سنعرف اسمه فيما بعد، كم طلب منك؟!".

"مائتا ليرة".

تذعرك قعقعة القهقهات، تنفجر بغتة عميقة، ثم تصمك وتعميك الضحكات، ترن متصلة، وأنت في بؤرة من الصمت، لا تعي ولا تفهم، والرجال يحملون الحقائب، ويضع المدير نظاراته على عينيه، والسكرتيرة تواري وجهها وراء يدها، وهي ما تزال تضحك، وينضح منك عرق غزير، وثمة ما يحز في حنجرتك، ويفككها تفكيكاً..

"رشوة، هذه ليست رشوة يا رجل".

"هذه ثمن فنجان قهوة".

"أفزعتنا، حسبنا أنه طلب منك عشرات الألوف".

"موظف صغير طلب منك تعويضاً بسيطاً عن أتعابه".

"أمر طبيعي جداً، سيفتح الأضابير، ويراجع الملفات، ويمضي ساعات وساعات لكي ينظر في طلبك، وهل تظن أن مئتي ليرة كثيرة".

"لا يا رجل، اذهب وادفع له خمسمائة".

"يبدو أنك طيب وساذج".

"قلت إنك قادم من الريف في أقصى الشمال، يبدو أنك تعيش في رأس جبل".

"لعله لم ينزل إلى المدينة".

"ربما كانت هذه أول مرة يدخل فيها دائرة ويتعامل فيها مع الموظفين".

"اذهب، وادفع له، لا تبخل يا رجل".

صمتّم أخيراً، وخرجتم، لا بأس، لقد عرفت، وستدفع له، كما دفعت أجرة نقل جثمان والدك، بعت ساعة يدك، وأنت شاب دون العشرين، ودفعت أجرة نقله، كانت أجرة نقله ميتاً، أكثر من أجرة نقله حياً، ورجعت معه إلى القرية، وحدك، وها أنت ذا الآن وحدك، ليس في جيبك غير مئتي ليرة، وعشر ليرات، وبضعة قروش.

"أنا دفعت له خمسمائة، ولم يؤخر معاملتي يوماً، وهذا شيء طبيعي".

حتى أنت أيها الكهل الدميم، أنت شريكه أو قريبه، أو أخوه، نهش جيفتي الأربعة، والمدير، ولكنك أنت نقعتني في السم، وعلقتني من كرعوبي، ثم سلخت جلدي، لو كنت في ساحة القرية لكنت بقرت بطنك واقتلعت عينيك وقصصت لسانك، ولكنك هنا في دائرة حكومية، تمنيت أن يقف واحد منكم إلى جانبي، أن يدافع عني بكلمة.

ولم يبق إلا أنتِ، صوتك الأنثوي وحده هو ما يسلي في هذا المأتم، هو وحده العزاء، كما كان جسمها في قاعة الانتظار وحده الحي بين أجساد ميتة، ولكني لم أستطع مغازلتها، وأنا ابن السابعة عشرة وأبي يموت على كتفي،

وأنـا لا أسـتطيع الآن مغازلتـك، لأن شـيئاً مـا فـي داخلـي يمـوت، ليـت لـي صـديقاً الآن، يحملنـي ويخـرج بـي كمـا خرجت بأبي من قاعة الانتظار، وقد لفظ نفسه الأخير، ترك روحـه هنـا، وعـدت أنـا إلـى قريتـي لأحـدث أهلهـا عـن العاصمة، واليوم أعود ثانية، لأحدثهم عنها أيضاً، ولأحدث طلابي، وقد تركت هنا كل ما بجيبي من نقود، ويداك ما تنفكان تنسجان الصوف، والحر شديد، وأنا أختنق، والسيخ فـي يـدك يخـز حنجرتـي، هـل يسـتطيع صـوتك حملـي إلـى زوجتـي وطلابـي وقريتـي مـن غيـر أن أدفـع رشـوة، لعلـي أعود إليهم بالهدايا، وبذكرى من عينيك، لعلي أعود.

"هل هناك، يا مدام، جهة عليا، يمكن أن أرفع إليها شكوى؟".

"طبعاً، ولكن أنصح لك أن تدفع، فالمبلغ بسيط".

"ولكن المشكلة ليست في المبلغ، وإنما في المبدأ، وإذا دفعت اليوم مئتين، فقد أدفع غداً ألفين".

"في كل الأحوال، أنصح لك أن تدفع".

الجدار.. والقبعة الصغيرة

كتبت عام 1993 في ذكرى مرور خمسة أعوام على انتفاضة الشعب العربي في فلسطين.

أبو صخر وأبو خالد أمام الجدار وعلى مقربة منهما، عند حافة الرصيف، يقف أبو طارق وراء عربته المحملة بقليل من البرتقال، وبين المشاة على الرصيف بعض الشباب يروحون ويجيئون، قبضاتهم المشدودة مستعدة لدى أول إشارة لالتقاط الحجارة الكثيرة المتناثرة على الرصيف بصورة غير عادية.

أبو صخر، وهو أمام الجدار، يرفع بيده اليسرى علبة الدهان البخّاخ إلى فوق قليلاً، فيحسّ بشيء من الألم.

لا بأس، فليكن، لابد من بعض الألم، هو على الأقل ليس كالألم يوم لواها مجندان إلى الوراء، ثم ركزاها على طرف الحفرة، وأخذ مجند ثالث يرضخها بحجر.

يده اليمنى مرخية إلى جواره، لا يستطيع تحريكها، بل لا يحسّ لها بأثر، كأنها ليست منه، كأنها ليست بشيء.

اخترقتها رصاصة منذ عامين، فماتت، ماتت على الفور، أصبحت مثل خرقة بالية.

ويلتفت إلى أبو خالد، يناديه:

"أبو خالد، أنا ليس عندي غير يد واحدة، لا تتعجل الكتابة، تمهل".

أبو خالد على بضعة أمتار منه، يرفع علبة الدهان البخّاخ بيده اليمنى، ويضغط بإبهامه، ويكتب على الجدار.

يرد عليه:

"لا تقلق يا أبو صخر، سأكون أبطأ منك، على كل حال، نحن معاً".

أمام هذا الجدار وقفت ساعات وساعات، مرفوع اليدين إلى أعلى، ومعي أكثر من عشرين شاباً، وجوهنا جميعاً إلى الجدار، أيدينا مرفوعة إلى فوق، ووراء ظهورنا البنادق والسيارات المصفحة، وعشرات المجندين.

هذا هو جدارنا، وراءه قبور إخوتنا وآبائنا وأجدادنا، قبور شهدائنا.

الحاكم العسكري في الطرف الآخر من الساحة يزعجه أن يطل من شرفته فيرى الجدار ومن ورائه المقبرة.

على هذا الجدار سنظل نكتب، وعلى هذا الجدار سيظل دمنا يتدفق.

أمام هذا الجدار سقط أخي أبو المجد، وبقع الدم من قلبه النازف ما تزال آثارها هنا وهناك على الجدار.

ويلتفت إلى وراء، ينظر إلى أبو طارق.

أبو طارق يقف وراء عربته، يرقب أول الشارع وآخره، يمد نظره إلى آخر الساحة، إلى الطرف الآخر، حيث مقر الحاكم العسكري.

الناس يمرون به، لا يشترون شيئاً من البرتقال، بل لا يسألونه، يعرفون لِمَ هو واقف.

"يا حسن"

بين لحظة وأخرى أبو صخر وأبو خالد يتوقعان سماع هذا النداء. يلذّ لهما سماعه، تطلقه حنجرة أبو طارق.

أبو طارق يداه لا تقدران على دفع العربة، ولا على البيع ولا على الشراء، قضبان المعدن ما تزال مغروسة في ساعديه.

أبو صخر يلتفت إليه، يغمز له بعينه، وهو ما يزال يكتب بيده اليسرى.

أنزلانا معاً، أنا وأبو طارق، في حفرة، هم تسعة أو عشرة، ثلاثة أو أربعة حولي، وثلاثة أو أربعة حول أبو طارق، وربما ثلاثة أو أكثر، يطلون على الحفرة.

اثنان يشدان ذراعيّ إلى وراء، واثنان يشدان ذراعيْ أبو طارق إلى وراء، أنظر إلى عينيه، أضغط على أسناني، فيرفع لي حاجبه، فليكن، لن نموت، ولو دقوا أعناقنا.

ذراعي ملوية إلى وراء، والأخرى مشلولة، عرفوا أنها مشلولة فتركوها، لوَوْها في البدء فالتوت مثل خرقة، وأنا في عز الألم ضحكت، تمنيت ساعتها لو كانت الأخرى مشلولة، لذلك تكالبوا عليها، شدوها بقوة، أحسست أنهم يخلعونها من الكتف.

المجنّد لا ينظر في عيني، وهو يلوي الذراع، يضعها على حافة الحفرة، فوق حجر، لا يرضى بذلك، بل يرفع القميص عن الساعد، وأغلق فمي، وينفجر الألم، العظم يتشظى، وأصرخ، كنت عازماً على ألا أصرخ، ولكن الألم شديد، زاغت عيناي، اسودت الدنيا أمامي، وكدت أسقط.

ورضخة أخرى على الساعد، وأصحو، أصرخ، أصيح، ليتهم بتروها، ربما كان البتر أسهل، الدم يختنق، تمنيت لو انفجر، لو تدفق.

لم أشعر بمثل هذا يوم اخترقت الرصاصة الذراع اليمنى، ماتت على الفور، ولكن هذه لم تمت، ولن تموت.

أبو طارق أقوى مني، لم يصرخ سوى مرة واحدة، رأيتهم يرضخون ساعديه الاثنتين بحجر أكبر من الحجر الذي رضخوا به ساعدي، ثم دفعوا به، فإذا هو يسقط أمامي في قعر الحفرة، أميل عليه، أحاول رفعه، فلا أقدر، يد

شلاء، ويد محطمة، وأراه، يضغط على الأرض بظهره، يضغط، وينهض بكامل جذعه، في اندفاع، لا أعرف، هل الأرض هي التي دفعته فنهض؟

وألتفت، وإذا هو الآن ورائي.

أبو خالد يناديه مازحاً:

"يا أبو صخر، لا تنس النقطة فوق الفاء"

"إذا نسيتها دمي يكتبها"

ويرد أبو خالد:

"دمك له وقت آخر، لم يحن بعد"

أبو صخر يضغط بإبهامه على علبة الدهان، رائحة الدهان تنعشه، الحروف على الجدار تمتد أمامه، تمتد مروجاً وحقولاً وبيارات، تزهر برتقالاً، هو وسناء يتراكضان، يتدحرجان على الهضاب، يتسلقان شجرة برتقال.

ويأتيه صوت أبو خالد:

"يا أبو صخر، الكتابة في غيابهم ليس لها معنى، أريد أن يروني وأنا أكتب"

"الآن تأتي سياراتهم، وينهمر عليك الرصاص"

الأمر محير حقاً، هل نسي أبو طارق كلمة السر: "يا حسن؟" هكذا اتفقنا، إذا ما رأى أي سيارة من سياراتهم قادمة، أو أي مجند، فليهتف؟ ولكن ما بالهم لا يأتون؟

مقر الحاكم العسكري هناك، عند الطرف الآخر من الساحة، وما هو ببعيد.

ويلتمع في ذراعه ألم شديد، فيصرخ:

"آخ"

ويلتفت، الشيوخ والأطفال والشباب يقفون، ينظرون، عيونهم تتألق، وجوههم كالربيع، وهم يقرؤون الكلمات

بكتبها على الجدار، والكوفيات على رؤوسهم يداعبها النسيم.

الشارع يضج بالحركة، سيارات ومشاة وحوانيت وساحة، صخب وضوضاء وضجيج، ولكن أين هم؟ أين سياراتهم المصفحة وجنودهم؟ الأمر اليوم مختلف.

سنة كاملة، وأنا أشتهي قذفهم بحجر، ولكن يدي لا تساعدني، ابني صخر في الثانية عشر، يخرج أمامي، يقذفهم بحجارة، وأنا لا أقدر، يد مشلولة، ويد مكسورة، قالوا لي: يكفي صوتك، تهتف، تنادي، تحذّر، تنبّه، ولكن لا، أكثر من مرة حاولت قذف حجر بقدمي، ولكن لم أقتنع، أود لو رميت ذراعي، لو قذفت بها في وجوههم، منذ يومين فقط رفعوا القضبان المعدنية من ذراعي، ربما رفعوا القضبان المعدنية من ذراعي أبو طارق بعد أسبوع.

أبو ماهر قال لي: سنرسلك إلى الخارج للعلاج. قلت له: لا ضرورة. هناك من جراحه أخطر، وهو أولى مني بالعلاج في الخارج. على كل حال الشباب ههنا تدربوا على كل شيء، الواقع علمهم، وهم طوروا خبرتهم وأدواتهم بأنفسهم، هم قادرون على إجراء كل العمليات، غداً سيتعلم هؤلاء الشباب تركيب ذراع بدلاً من أخرى مبتورة، وغرقنا في الضحك.

سنبيع ونشتري ونتزوج وننجب ونبني ويصاب بعضنا ويستشهد بعضنا الآخر، ولكن لابد بعد ذلك...

والآن، لا أكاد أصدّق، الألم يشتد.

"يا أبو خالد، أسرع، الألم في ذراعي يشتد، يجب أن ننتهي بسرعة، أحسُّ كأن أحداً ورائي يطعنني بخنجر"

"لا تقلق، هل نسيت الحفرة؟!".

لن نموت يا أبو صخر، لن نموت، أنا لا أنسى هذا الجدار، رشقة رصاص دوّت وراءنا، وأهوي على الأرض مع ركام من الشباب، وأنا لا أدري، هل أصبت أم لم أصب؟ أرمي بنفسي، ولطخ الدماء على الجدار، دم يشخب

نازفاً من جراح، صدور تحشرج، رعشات أخيرة، موت وانطفاء، أحسّ بركام الجثث من حولي، وأحسّ بشيء بارد كالصقيع ينسلّ في كتفي، ثم يتوهّج كالتنور، ثم أحس ببقعة ساخنة عند الكتف تبل القميص، البقعة تكبر وتكبر، النار تشتعل في اللحم، أرى الدم يقطر من أصابعي.

أدرك أنني أصبت، وأدرك أنني لم أمت.

عينا أبو طارق تنتقلان ما بين أول الشارع، وآخره، تستقران في البعيد، عند طرف الساحة، حيث الحاكم العسكري.

من هنا أو من هناك، لابد أن يأتوا، ولكنهم لم يأتوا؟ ليست هي عادتهم، لابد أنهم رأونا.

الشارع يضج بالحركة.

عجوز تدبّ على الرصيف بخطا وئيدة، تتوكأ على عصا، تقف أمام الجدار، تتأمل طويلاً الكلمات المكتوبة.

"أنا لا أقرأ ولا أكتب، ولكن أعرف، أعرف، بارك الله فيكم يا أولادي".

شاب بقربها يصيح غاضبا:

"إلى متى؟ خمس سنوات مرت ونحن كلمة وحجر وهم دبابة ومدفع؟".

تلتفت إليه العجوز، تنظر في عينيه، وبصوت متهدّج تتكلم:

"الحق معك يا ولدي، ولكن، مع ذلك، لابد، أقسم بالله، لابد، إذا ما رأيتها أنا، فسوف تراها أنت، لابد من الدولة، لا تقلق، يا ولدي".

وتمضي.

أبو خالد يلتفت إلى أبو صخر:

"هيا يا أبو صخر، انتهينا"

"لحظة واحدة فقط، للمرة الأخيرة فلسطين دولة،

عربية حرة مستقلة، سأملأ بها الجدار، بل العالم".

يده إلى أعلى، وهو يكتب.

وتدوّي طلقة، الرصاصة في الظهر، تخترق القلب.

"يا حسن".

أين النداء؟ أين أبو طارق؟.

ويهوي الجسد على الجدار، يلتصق به، بقعة دم كبيرة ترتسم على الجدار، والجسد ينزلق رويداً، الذراعان تتشبثان بالجدار، الأصابع متعلقة بـ "فلسطين"، والجسد يأبى السقوط.

أبو خالد يمد يديه إلى الجسد، يحمله قبل أن يبلغ الأرض، وينطلق به مع عشرات الأيدي، ترفعه إلى أعلى إلى فوق.

الرصيف والإسفلت والجدران والأيدي كلها تشظّت حجارة تنهمر على ثلاثة ركضوا نحو الطرف الآخر من الساحة.

أحدهم يلف رأسه بكوفية، الكوفية تطير، يحاول تثبيتها، لا يعرف، الكوفية تسقط عن رأسه.

وإذا على يأفوخه قبعة صغيرة.

الحجارة في إثرهم ترجمهم، وعلى الجدار ما تزال بقع من دم، وكلمات تنبض: فلسطين عربية، فلسطين حرة، فلسطين دولة.

←←

وتبقى الغابة

"كتبت في ذكرى مرور خمسين عاماً على إلقاء قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما في صباح السادس من آب عام 1945".

ينهض الشيخ العجوز "نيشيدا" من فراشه مذعوراً

"أي حلم هذا؟!"

يحاول التخفيف من قلقه، يسيطر على نفسه.

يمضي إلى النافذة المفتوحة، يقف أمامها، يرى نجمة الصباح وهي تتألق والضياء الناعم للفجر ينساب كالشذى، يعب من النسيم المندى بهمس المروج، يصغي إلى طائر الليل (هيتوتوغيزو) وهو يرسل نداءه الحزين، مودعاً آخر الليل.

يذكر الحلم، ترتعش أطرافه.

ولكنه يصمم على طرد القلق، وإعادة نفسه إلى توازنها.

*

يمضي إلى حفيدته "شوكو"، يقف قبالتها، يتأملها هنيهة وهي نائمة، يرنو إلى عينيها اللوزيتين، ووجهها المدور الذي يشبه كثيراً وجه أمها "ميتسكو"، ثم يمسح بيده الراعشة جبينها الضيق، وشعرها الأسود الفاحم.

"هيا، هيا يا صغيرتي، أمامنا يوم حافل".

وتنهض الطفلة، وهي تسأل:

"جدي، هل ستزورنا اليوم حقاً روح أبي"

"أجل، أجل يا صغيرتي".

*

خارج باب الدار يلتقي جاره أنونو كوماتشي، فيحييه، ثم يقول له:

"لا تنس، سنجتمع اليوم على مائدة الغداء، ستزورنا روح هاتاتو".

ويسأله جاره:

"هل يمكنني تقديم أي مساعدة؟"

ويجيبه "نيشيدا":

"شكراً أيها الجار الطيب، أنا ذاهب إلى الحقل لجمع زهرات البوني قبل أن يسقط عنها ندى الفجر، كما سأجمع بعض الفطر".

"هل أعطيك عربتي، يا نيشيدا،؟"

"لا أغير عادتي، طريقي إلى الحقل لا أقطعها إلا ماشياً، شكراً لك أيها الجار".

بعد بضع خطوات يرى "كورا أكثرا" صديقة ابنته، وهي ماضية على دراجتها إلى المعمل، يلوح لها بيده، فتنعطف نحوه، وحين تصل إليه تهبط عن دراجتها تحييه، وتمسح بيدها على رأس شوكو، تداعب شعرها.

يقول لها الجد:

"اليوم هو السادس من آب، ذكرى مصرع صهري الكاميكاز هاتاتو، سأعد مأدبة لاستقبال روحه، يسرني أن أدعوك، لتكوني إلى جانب ابنتي ميتسكو".

وتضيف شوكو:

"وصلت أمس برقية من أمي في مشفى شيما تخبرنا

فيها أنها ستغادر هيروشيما في قطار التاسعة صباحاً، لقد حصلت على إجازة ليومين، لتحضر المأدبة التي سيعدها جدي، لذلك، أرجو ألا تتأخري".

تمسح ثانية بيدها على رأس شوكو، ثم تقول لها:

"وأنا، يا شوكو، سآخذ من المعمل إجازة لساعتين، حتى أكون بجانبك، لا تقلقي يا صغيرتي".

وتمتطي دراجتها، ثم تمضي، وهي تلوح لهما بيدها.

الدرب من "أوكا ياما" إلى الحقل شبه خالية، لا يطرقها إلا بعض الشيوخ والأطفال، الشباب جميعهم في خطوط القتال.

النور يملأ الكون، كل شيء بدا كأنه ينهض من نوم عميق، كل شيء يتفتح لنهار جديد.

يوم مشرق، وسماء صافية، ما أجمل الكون؟ وما أحلى الحياة؟!.

ولكن ما أقسى الحرب؟!

من شروق الشمس إلى غروبها، طوال ساعات النهار، طوال ساعات الليل، كلنا نعمل، والحرب تأخذ كل شيء، أخذت صهري "هاتاتو"، كأني عشت إلى هذا العمر كي أرى ابنتي أرملة، وحفيدتي يتيمة، وبلادي تدمرها الحرب، كأني عشت إلى هذا العمر كي أرى ذلك الحلم.

"لماذا أنت صامت يا جدي؟".

هكذا تسأله ابنة الاثني عشر ربيعاً، فيجيب الجد:

"لا شيء، يا صغيرتي"

"ولكن، ليس من عادتك الصمت؟"

ويتكلم الجد:

"اسمعي يا شوكو، لقد عشت ثمانين عاماً، ولم أر طوال حياتي مثل حلم الليلة الفائتة".

"أنا أحب الأحلام كثيراً، حدثني عن حلمك، يا جدي".

هو حلم ليس كباقي الأحلام يا صغيرتي.

لقد رأيت أحلاماً كثيرة، ولكن لم أر مثل هذا الحلم، والذي يدهشني أنني رأيته بوضوح، وأنني أذكره، ولا أنسى منه شيئاً.

يد بشرية، تحمل وشم جمجمة، كأنما هي قرصان، تضع نقطة صغيرة صغيرة جداً، كالذرة. وتندلع النار في شجرة، آلاف العصافير تحلق وأجنحتها تحترق، عصافير على الأغصان يسيل لحمها مثل الصديد، الشجرة كلها تتفحم، ثم لا يبقى من الشجرة ولا من العصافير شيء، كأنها جميعاً قطرة ندى أحرقتها نار مؤججة.

هكذا يتكلم الجد، وصوته يتهدج، وخطواته تتثاقل.

*

وتتكلم "شوكو" وهما يسيران معاً نحو الحقل:

"هذه الشجرة حدثتني عنها كثيراً يا جدي، هي الشجرة التي أحرقتها الصاعقة، هل تذكر حديثك عنها؟".

ويعلق الجد:

"لا أنسى يا "شوكو"، كنت ماضياً إلى الحقل، وكانت السماء ملبدة بالغيوم، ليست كهذا اليوم الصافي الجميل، كانت الغيوم سوداء، وقد تراكم بعضها فوق بعض، وفجأة انشقت السماء عن سهم من نار، وإذا شجرة بجواري تحترق".

وتضيف "شوكو" بزهو:

"ألم أقل لك يا جدي، هذه هي الشجرة"

ويرد الجد:

"لا، لا يا صغيرتي، الصاعقة لا تختار من الغابة إلا الشجرة اليابسة، أما اليد فقد وضعت نقطتها على شجرة خضراء".

ويصمت هنيهة، ثم يضيف:

"ولكن الحلم لم ينتهِ يا شوكو، فاليد نفسها، اليد البشرية، تضع نقطة أخرى، فتحترق كالأولى شجرة ثانية".

*

"شوكو" تفكر، وهي تخطو فوق الدرب الترابية.

"هل نسيت يا جدي حديثك عن الأفعى والشجرة؟"

"لا أنسى أبداً، كنت في حقل التدريب، وأنا في ريعان الشباب، مع كتيبة المشاة، فقعدت في ظل شجرة لأستريح، وإذا أفعى تسعى نحوي، ذعرت، هممت، ولكن سيطرت على نفسي، أخذت أتأمل عينيها، وانسيابها اللدن، كان بإمكاني بكل بساطة أن أثقب جسدها بعشرات الطلقات، ولكني تركتها تمر بسلام".

هكذا يتكلم الجد، وهو يجر خطاه.

وتعلق "شوكو":

"إذن، هذه هي الشجرة الثانية".

"لا، لا يا شوكو، أحس بشيء آخر مختلف".

*

الشمس تبدأ بالبزوغ، تنشر شعاعها الذهبي، تصعد رويداً رويداً، كأنها طفلة شقراء الشعر تحبو.

العجوز يمسك بيده الشائخة يد حفيدته البضة، وهي تضغط بأناملها الناعمة على جلده المتغضن، وعروقه النافرة.

يخيم عليهما صمت، ولا يسمع خلالها إلا وقع خطا العجوز الثقيلة، ونقلات خطا الحفيدة الرشيقة، وقفزة جرادة ذهبية، وخفق جناح طائر.

في الأفق يظهر جاره العجوز وهو يضرب بمعزقه الأرض، والشمس من ورائه تكبر وتكبر.

وينعطف إلى جاره.

"حاذري يا صغيرتي، لا تدوسي على حافة الساقية، أخشى أن ينهار التراب تحت قدمك، فيعكر صفاء الماء، لاحظي كم هو رقيق وصاف وشفاف".

تحمر وجنتا شوكو، وتهمس:

"شكراً يا جدي، سأكون حذرة"

*

ولكن الحلم يعكر صفو نفسي، وآلاف المدافع والقنابل تجرح الانسجام المقدس في موسيقا الكون.

أية شجرتين هما اللتان احترقتا؟

أو اللتان ستحترقان؟

مع ذلك، لابد من أن نقدم الولاء للوطن.

كل شيء للوطن، لكي يبقى.

*

"جاري الطيب، اليوم هو السادس من آب، ذكرى مرور عام على مصرع صهري "الكاميكاز هاتاتو"، روحه ستزورنا اليوم، تسرني دعوتك إلى المأدبة التي سأقيمها عند الغداء".

ويرد العجوز:

"شكراً لدعوتك يا نيشيدا، أذكر صهرك الشجاع، حدثني عنه ولدي المقدم شوهاكو، أكد لي أنه من أجرأ الطيارين، لقد لقي مصرعه لأجل الوطن".

"أرجو ألا تتأخر"

"لن أتأخر، وسأطلب من زوجتي أن تعد حساء خاصاً ليكون على المائدة".

*

ويدخل "نيشيدا" حقله، وهو يقول لحفيدته:

"هيا، يا شوكو، انطلقي لجمع زهرات البوني، كان والدك يحبها كثيراً، سنضعها اليوم على المائدة".

"هل أساعدك في جمع الفطر، يا جدي؟"

"لا يا شوكو، اتركي هذا لي".

*

مثل طائر الأوزو تنطلق، تعدو، تقفز، تغرد.

شمس الصيف تسطع، تبخر ندى الليل، والأرض تجود بزهر البوني والفطر.

في طرف الحقل تلتقي شوكو بالطفلة ناكاتسو كازا، وهي دونها في العمر.

"لِمَ كل هذه الزهور؟"

"سأضعها على المائدة التي يعدها جدي لاستقبال روح أبي".

"آه، أذكر، والدك قتل العام الماضي".

"نعم، والدي أشجع كاميكاز، اقتحم بطائرته بارجة معادية، ودمرها، واليوم ستزورنا روحه".

وتعلق ناكاتسو كازا:

"أنا أبي أشجع مدفعي، وهو لم يقتل، وأنا لا أريد أن يقتل، أبي يزورنا كل شهر، يحمل لي معه طلقات فارغة، أصنع منها أكواباً ومزهريات".

"أنا أتمنى أن أموت مثل أبي"

وترد ناكاتسو كازا:

"لا يا شوكو، نحن صغار، لن نموت"

*

وتعدو شوكو إلى جدها.

"انظر يا جدي"

"آه، هذا جميل جداً، يا شوكو، ما أجمل ترتيبك لباقات الزهر، ولكن لماذا هي ثلاث باقات؟"

"واحدة لك يا جدي، وواحدة لأمي، وواحدة لروح أبي".

"أحسنت يا شوكو، هيا، فلنعد إلى البيت".

*

الجد يشد خطاه على طريق العودة، وهو يحمل كيساً صغيراً مملوءاً بالفطر، والحفيدة تحمل ثلاث باقات من زهر البوني.

الشمس ارتفعت، السماء صافية، الجو أصبح حاراً قليلاً.

شوكو تتكلم:

"جدي، إذا كبرت، فسوف أقود طائرة، وأقتحم بها بارجة معادية مثل أبي".

"لا يا صغيرتي، لا نريد للحرب أن تستمر، أتمنى أن تنتهي الحرب سريعاً، أخذت الحرب منا الكثير".

"إذن، لماذا نحارب؟"

"الحرب قذرة يا صغيرتي، ولكنها فرضت علينا، والولاء للوطن يقتضي الشجاعة والفداء".

وبعد هنيهة صمت، تتكلم شوكو وهي تعدو أمام جدها:

"إذن، سأعمل ممرضة، مثل أمي".

"أحسنت يا شوكو، وتكون أمك قد أصبحت رئيسة الممرضات، وتكون بلدتنا قد افتتحت مشفى كبيراً، ويمكن عندئذ أن تعملي في أوكا ياما الجميلة".

"وسوف أطبب جلدك الذي أحرقته الشمس".

ويضحك الجد، ثم يعلق:

"إلى أن تصبحي ممرضة يا شوكو، أكون قد احترقت

مثل شجرة الحلم".

*

شجرة الحلم، هل الشجرة الأولى هي صهري؟ والثانية هي أنا؟ هل حانت منيتي؟ ثمانين عاماً عشت لم أشاهد فيها مثل ذلك الحلم.

ولكن.

*

على صخرة بجانب الطريق يقعد الجد.

"آه يا شوكو، لا أعرف ماذا بي هذا اليوم، الحلم أرهقني، أحس بالجو ساخناً، يا له من يوم قائظ؟"

"وأنا كذلك يا جدي، أكاد أختنق"

"إذن، هيا، فالشمس ارتفعت كثيراً"

ويهم بالنهوض، ولكنه يشعر بالتعب، ينظر إلى الشمس، ثم ينظر إلى زهرات البوني.

"الزهرات ذبلت سريعاً، على غير عادتها، لا أعرف ما سرّ هذا اليوم، لعل الساعة لم تبلغ الثامنة والنصف، ومع ذلك، فالجو أصبح حاراً وخانقاً بسرعة".

"آه يا جدي، أحس بالاختناق"

"فلنسرع يا صغيرتي"

*

الحر يشتد، وثمة غبار وقتامة، كأنما لف الكون كله غبار.

علي جانب الطريق إلى "أوكا ياما"، مرة أخرى يقعد الجد، وتقعد إلى جانبه حفيدته.

أزهار البوني ذبلت تماماً.

كل شيء اليوم غير عادي.

"انظري إلى هناك يا شوكو"

"ما هذا يا جدي؟ هل هي غمامة؟"

"ما رأيت قط غمامة على هذا الشكل؟"

"لعلها عاصفة"

"أراها يا شو كو تعلو وتتسع وتتسع، على شكل فطر عش الغراب".

"جدي، أرجوك، فلنسرع، أخشى أن تكون أمي قد وصلت"

"لا يا شوكو، أمك ستغادر هيروشيما في التاسعة، لعلها الآن التاسعة، ولن تصل أوكا ياما إلا بعد ساعتين على الأقل".

"ولكني أشعر بالاختناق يا جدي"

"وأنا يا شوكو، لا أقدر على النهوض ".

*

آخيل الذي قتل هيكتور، وجر جثمانه تحت أسوار طروادة، ثم اضطر أباه العجوز بريام إلى الركوع أمامه، كي يسلمه جثته، لا يفعل مثل هذا.

نيرون الذي أشعل النار في البيوت، ثم اعتلى تلة، ووقف يطل على روما وهي تحترق، وأخذ يكتب قصيدة يستلهم فيها المنظر، لا يفعل مثل هذا.

هولاكو الذي اقتحم بغداد، وأحرق كتبها، وقتل الأطفال والشيوخ والنساء، وألقى بالجميع في دجلة، ثم ربط الخيول في المساجد، لا يفعل مثل هذا.

أنتم ما رأيتم، وأنا ما رأيت، ولكن عيني هما اللتان رأتا، وأنا لا أكاد أصدق.

جلود تتقشر، وأجساد مثل القدور تغلي وتفور، بعض الأعضاء من الجسم ذابت وأخذت تسيل، وبعضها الآخر يحترق ويتفحم، كأنما الأجساد تشوى على سفود.

جماجم يسيل منها اللحم الذائب، تجري فوق أرجل تشتعل، ورؤوس مشتعلة، تحملها أقدام سال عنها اللحم، ولم يبق فيها سوى العظم.

نار ولا هواء، لهب ولا نار.

أطفال ونساء ورجال وعجائز في الطرقات وعلى الأرصفة مثل فتات مرمى للطيور.

أما البيوت والجدران والأسقف، فلا شيء منها.

كل براكين العالم لم تصنع مثل هذا، لا الحمم ولا أنهار النار ولا الرماد البركاني يفعل مثل هذا، هذه كلها أرحم.

في ساحة "أوكا ياما"، والناس ملتفون من حوله، هكذا كالمصعوق، يتكلم المراسل الصحفي القادم من "هيروشيما"، وقد سقط شعر رأسه، وتقرحت جفونه، وتقشر الجلد عن أصابع يديه.

ويتقدم منه نيشيدا، الجد العجوز، يسأله:

"أرجوك: خبرني، هل أصيب مشفى شيما؟"

ينظر إليه الرجل بإشفاق، ثم يقول:

"لعل القنبلة ألقيت على مشفى شيما نفسه"

*

الجد "نيشيدا" في فراشه، والحمى تأكل جسده، وشوكو إلى جواره، تضع الثلج على رأسه.

"أظن ابنتي خرجت قبل الثامنة، ولعلها تأخرت في الطريق، ستصل من غير شك بعد قليل، هي وعدت، ولن تخلف وعدها".

هكذا يتكلم حيناً، وحيناً آخر يقول:

"كل أبناء هيروشيما، كلهم أبنائي".

وحين يزوره الجيران يرجوهم أن يعيدوا عليه تفاصيل النبأ من الجريدة، ثم يسألهم:

"هل حقاً ألقيت القنبلة في تمام الثامنة والربع؟"

*

بعد ثلاثة أيام يشتد به المرض، يرجو حفيدته أن تجر سريره إلى جوار النافذة المفتوحة، يؤكد شوقه إلى الشمس وزهور البوني والفطر، يحلم بإعداد مائدة جديدة.

ويدخل عليه جاره أنونو كوماتشي صائحاً كالمجنون:

"هل سمعت؟"

"ماذا أيضاً؟"

"اليوم ضُرِبَت ناغازاكي"

بعينيه الكليلتين يحدق في جاره، ثم يقول:

"الآن عرفت، هذه هي الشجرة الثانية".

ثم يرجوه أن يساعده على النهوض.

يرتفع بجذعه قليلاً مستنداً على كتف جاره، يمسك بيد حفيدته، يضغط عليها بأصابعه المعروقة الراعشة، يرنو من خلال النافذة إلى المروج، ويهمس:

"قد تُحرَق شجرتان، أو ثلاث، أو أربع، ولكن... تبقى الغابة".

*

في مشفى حديث وكبير في مدينة "أوكا ياما" تعمل شوكو اليوم بعد خمسين عاماً طبيبة، إلى جوار زوجها الطبيب المختص مثلها بالأمراض الجلدية.

وكل عام، في السادس من آب، تعدّ مأدبة، تضع عليها ثلاث باقات من زهر البوني، والفطر المطبوخ مع الأرز، وتدعو إلى الغداء، أولادها الثلاثة وزوجاتهم.

وعلى المائدة، تروي لضيوفها قصة الحلم، ثم تنظر من النافذة المفتوحة، حيث كان ينظر جدها، فترى أحفادها وهم يتراكضون في حديقة الدار، كما ترى بيوت "أوكا

ياما" الحديثة وقد سدت الأفق.
ثم تكرر في الختام.
"وتبقى الغابة".

تعليقات

1-في الساعة الثامنة والربع من صباح يوم الاثنين الواقع في السادس من شهر آب عام 1945 ألقت أمريكة أول قنبلة ذرية في التاريخ على مدينة هيروشيما، فانفجرت على ارتفاع 580 متراً فوق مشفى شيما فأحدثت دماراً هائلاً وتوفي حالاً أكثر من 140000 شخص، والذين ظلوا على قيد الحياة أصيبوا بتشوهات وعاهات دائمة، وإلى اليوم ما يزال كثير من أهالي هيروشيما يعانون من أمراض ناتجة عن تعرضهم للإشعاع الذري، وفي التاسع من آب من العام نفسه ألقت أمريكة قنبلتها الثانية على مدينة ناغازاكي.

2-أحدث انفجار قنبلة هيروشيما سحابة من الهواء المتناثر اتخذت شكل فطر عش الغراب وقد شوهدت على بعد مئتي كيلو متر من هيروشيما.

3-الكاميكاز، هم الطيارون الانتحاريون في الجيش الياباني الذين كانوا يضربون الأسطول الأمريكي بطائرتهم.

4-تقوم حياة الياباني على التفاني في العمل، واحترام الأب، والولاء للوطن، كما تقوم على تقديس الطبيعة، والحفاظ على جمالها ونقائها، وهو يعتقد بخلود الروح، وثمة تصور بأن أرواح الموتى تزور الأحياء يومين في السنة.

←←

شجيرات الورد

يصعد الدرج بهدوء، يخشى أن يراه أحد من الجوار، كأنه يصعده أول مرة، وهو الذي صعده من قبل عشرات المرات، يلهث، لا من تعب، ولكن من اضطراب.

يبلغ الدور الأخير، يتابع صعود الدرج، يصل إلى باب السطح، يدفعه، ويدخل، فضاء السطح الواسع يجعله يحس بالتيه للوهلة الأولى، ولكنه ما يلبث أن يخطو إلى الأمام.

"أعرفها جيداً، هذه هي دار الأستاذ ماجد، وهذه أصص الورد، أنا بنفسي حملتها لـه، وصعدت بها الدرج".

ويدلي جسمه إلى شرفة الدار، يتشبث بالجدار، يحس بالخطر، ينظر إلى أسفل، المسافة بعيدة، لم يتوقع ذلك، وفجأة يجد نفسه في الشرفة، ساقطاً إلى الأرض.

ينهض، يحس بألم في كاحل قدمه اليمنى.

يقترب من شجيرات الورد، يطل من الشرفة، يرى دكان معلمه أسعد.

"منذ دقائق كنت هناك، ليتني لم أفعل، ولكن... يجب ألا أنظر إلى الشارع، حتى لا يراني أحد".

يشم وردة بيضاء، ويمضي مسرعاً نحو باب مفتوح، يعرج، كاحل قدمه يؤلمه، يجتاز الباب.

"يا إلهي، هذا مطبخ؟! لا أصدق؟"

يرسل من بين أسنانه صفيراً.

"والله المطبخ أكبر من دارنا كلها، النفس تشتهي النوم هنا على هذا البلاط اللماع، دارنا ما فيها نسمة هواء".

يقترب من حوض المجلى، يمد قامته، يدوس على أطراف أصابعه، يرى وجهه في مقبض الصنبور، يبصق في الحوض.

كاحله يؤلمه، يلتفت إلى كرسي، يقعد عليه، يضع رجلاً فوق رجل، يتفحص كاحله.

"ألف مرة فتحت لي زوجته الباب، مرة أناولها الخبز، ومرة زجاجات الحليب، ومرة ومرة، وهو نفسه، يبلغ البناء، ينزل من سيارته، فأركض إليه، أحمل حقيبته إلى فوق، يضع في يدي ليرة، ولكنه ما دعاني لا هو ولا زوجته إلى دخول البيت".

يمد بصره إلى الشرفة، شجيرات الورد تشغله.

"عند خروجي من الدار سأقطف وردة ".

*

قال لمعلمه:

"أنا ذاهب لقضاء حاجة"

فأشار إليه برأسه موافقاً، دون أن يتكلم.

وعلى الفور اندفع خارج الدكان.

فجأة التمعت الفكرة في ذهنه، ما خطرت على باله من قبل، رأى الأستاذ ماجد يخرج من مدخل البناء، حاملاً حقيبة كبيرة، وضعها في صندوق السيارة، خرج من بعده ابنه سمير، ثم خرجت زوجته، تحمل حقيبة أخرى،

وانطلقت بهم السيارة.

"هم سافروا، وأنا سأدخل الدار، لتكن أول مرة، وآخر مرة".

هكذا قال محدثاً نفسه.

ما اختلس قرشاً من دكان معلمه أسعد، النقود كلها أمامه، بين يديه، يغيب معلمه، فيبيع بدلاً منه، ويقبض.

أحياناً يضع في فمه قطعة حلوى، ولكنه يدفع ثمنها.

في أول عمله عند أسعد قبل ثلاث سنوات، كان يعد ما يأكل، وعندما يقبض أجرته في نهاية الأسبوع، يقول لمعلمه: "احسم من أجرتي ثمن خمس قطع حلوى".

ثم أخذ يضع من جيبه ثمن ما يأكل مباشرة، وإن كان في الواقع يضع أقل من الثمن الذي يبيع به، كان يضع ما يخمن أنه ثمن الشراء، لا البيع.

مرة قال لمعلمه:

"معلمي، أريد قلماً ودفترين".

سأله:

"لمن؟"

"لي"

"ولكن أنت تركت المدرسة منذ ثلاث سنوات"

"سأرجع إليها"

"لا، لا يمكن ذلك"

"لأني كبرت؟! أنا ما زلت في الثانية عشرة"

"لا، لأن والدك يحتاج إلى أجرتك، ولن يسمح لك بترك العمل عندي والعودة إلى المدرسة".

*

ينهض، يتجه نحو الثلاجة.

"كل الأولاد يذهبون إلى المدرسة، إلا أنا".

ويفتح باب الثلاجة، ثم يقف طويلاً، يمد يده، يأكل لقمة من هنا، ولقمة من هناك، لا يعرف لما يأكل لوناً ولا طعماً ولا اسماً، يسوّي موضع اللقيمات التي أكل.

يشتهي قطعة لحم من الدجاجة المحمرة، ولكنها كاملة، كيف يقتطع جزءاً منها؟! يتناول تفاحة، يقضمها.

يمشي في المطبخ، كاحله يؤلمه.

"لماذا نزلت إلى الدار؟! ليتني ما فعلت"

يخطو إلى الداخل، وهو يعرج، يضغط على أزرار المصابيح، يضيئها، ثم يطفئها.

"الأستاذ ماجد مثل الممثلين في السينما، يخرج كل يوم من داره حليق الذقن، حقيبته نظيفة، وحذاؤه لماع، وداره مثل الأفلام، مثل الأفلام الأجنبية، ونحن دارنا فيلم، فيلم ما صوره أحد".

يفتح باباً ويدخل، وهو ما يزال يعرج.

"آه، هذه غرفة ابنه سمير، يا إلهي، ألعاب كثيرة، كبيرة وصغيرة، وحوض سمك، وكرات، ثلاث كرات، لا كرة واحدة، ومجلات ودفاتر وكتب وأقلام وصور، هذه غرفتي، آه، تلفزيون وفيديو"

يعبث بالأزرار، يضغط هذا، يدير ذاك، وهو يقضم التفاحة، يغضب، يصل شريطاً بمأخذ، وتتحرك الصورة.

يقف مشدوهاً، يطول وقوفه، وبقية التفاحة ما تزال في يده، يرجع إلى الوراء، يلقي نفسه في السرير، يضع تحت رأسه وسادة ناعمة.

القط يطارد الفأر، الفأر يعدو يركض، يقفز، يهوي من الدور العاشر، القط يذعر، يقلق على مصير الفأر، يعدو

على الدرج، يلهث، يصل إلى الشارع، يمد يديه ليتلقى الفأر قبل سقوطه إلى الأرض.

يحس في يده قطعة من فخذ الدجاجة، هو لم يقتطعها، ليست كذلك، بل وردة، بل شوكة، يده ترتد عنها فجأة.

ينتفض جسمه كله، وتسقط من يده بقية التفاحة، يفتح عينيه، ينهض من السرير كالمذعور، ينزل إلى الأرض، يتحسس بيده موضع الألم في كاحل قدمه.

*

القط يضحك، يضحك، والفأر ينغرز في الرصيف مثل رمح مكسور.

*

يمضي إلى الشرفة، يتأمل شجيرات الورد، تشده وردة بيضاء متفتحة، يمدّ إليها يده، ليقطفها، ولكن، كيف يأخذ ما ليس له؟ كيف يسرق؟ هي محض وردة.

أمام مدخل البناء وقفت سيارة فارهة، نزل منها رجل لامع الحذاء، اتجه إلى دكان أسعد، حياه ثم سأله:

"أين أجيرك أحمد؟"

رد المعلم مدهوشاً، كمن تذكر شيئاً منسياً:

"ذهب لقضاء حاجة، ولكنه تأخر".

"أرسِلْه إليَّ فور عودته، ليأخذ زجاجات الحليب الفارغة".

واتجه إلى الباب، وقبل أن يصله، التفت إلى أسعد، وسأله:

"هل عندك ثقة بهذا الولد؟!"

تردّد أسعد، ثم أجاب:

"بحسب المهمة".

"منذ قليل غادرت زوجتي المحطة مع ابنها في زيارة إلى أهلها، وأنا مسافر غداً في عمل لأسبوعين، فكرت في ترك مفتاح الدار عنده، ليعنى بشجيرات الورد في غيابي، سأترك له الثلاجة مملوءة بالطعام".

قال ذلك، ثم غادر الدكان، من غير أن ينتظر الجواب، واتجه إلى مدخل البناء.

←←

الشرط الرابع

دخلت عليّ أمينة السرّ، وهي تقول:
-شاب يطلب مقابلتك
نظرت إليها سائلاً:
-هل هو على موعد؟
-لا، أبداً
-اصرفيه إذن
-ألحّ عليّ
وأسألها:
-ماذا يريد؟
-أكد أهمية مقابلته لك
أتردّد، ثم أقول لها:
-دعيه يدخل

أنظر إلى ساعة يدي، وإذا هي تقترب من الواحدة، أنادي أمينة السر، قبل أن تخرج، أقول لها:

-وعدتني ابنتي أمل أن تتصل بي عند الواحدة، حوّلي مخابرتها إليّ مباشرة.

وجه شاحب، شاحب جداً، كورقة الخريف، والخدّان غائران، وعظم الوجه ناتئ، مثل صخرة في سفح جبل.

نظارتان مدورتان، صغيرتان جداً، سوداوان تلتمعان، مثل خفاش.

أمام المكتب يتقافز، كأنه يدوس على جمر، يدخل أصابعه في شعره المرفوع إلى فوق مثل قنفذ، أذناه ناتئتان مثل تينتين وحيدتين في شجرة سقط كل ورقها.

يمدّ إليّ يده، ليصافحني.

أشد على يده، ترتعش أصابعه مثل أعواد متكسّرة.

ما يزال أمامي، وهو يتقافز، كأنه يدوس على جمر.

قميصه الأحمر المخطط بالأخضر طولاً وعرضاً مفتوح عن صدر غائر، أملس، لامع، لا شيء من الشعر فيه.

يضع كوعه على المكتب، يستند، يميل عليّ بوجهه، يزكمني بخر فمه، أسنانه سوداء نخرة، شفتاه غليظتان، منفرجتان أبداً، يتكلم، وهما منفرجتان.

مثل زجاج يتكسر يأتيني صوته:

-السكرتيرة لم تسمح لي

يلتقط قلماً من فوق المكتب، يحمله بين إصبعيه، كأنه يحمل سيكارة، يضعه بين أسنانه، يرفعه، يحكّ به شعره.

-لا تعتب عليّ، صوتي مخرّش، الآن خرجت من الاستوديو، ست ساعات وأنا أجري بروفات فيديو كليب، أنا مرهق، مرهق جداً.

أسأله:

-ماذا تريد؟

يرفع نظارتيه، عيناه صغيرتان، صغيرتان جداً، إحداهما تحدّق في شهادة الدكتوراه في الحقوق المعلقة على الجدار ورائي، والأخرى تحدّق في ثوب القضاء المعلق على مشجب في زاوية الغرفة على شمالي.

يحاول الكلام، صوته يتكسّر:

-أنا.. أنا

ويرنّ جرس الهاتف، أرفع السماعة، يأتيني صوت أمينة السر:

-ابنتك أمل على الخط

وأتكلم:

-أهلاً أمل، من أين تتصلين بي؟ من البيت؟

ويأتيني صوتها:

-من الجامعة، الآن انتهيت من أول جلسة عملية

-وكيف كانت؟

-آه لو ترى، إحدى الزميلات أغمي عليها، وزميل آخر أصيب بالغثيان.

-وأنت؟

-أنا على استعداد الآن للدخول إلى غرفة العمليات، والمشاركة في أي عملية.

أنتَ؟! آه، أنتَ أنسيتّني أمل والجامعة والطب، لو كنتَ أنتَ في غرفة العمليات، مخدراً، تحت يدي أمل، لتجري مبضعها في جسدك وصوتك.

ويأتيني صوت أمل سائلة:

-هل عندك أحد؟

-لا، لا، تكلمي.

وتردّ كأنها تكلم نفسها:

-غير معقول، هو وعدني.

وتصمت فجأة، فأتكلم:

-عندي شاب، دخل للتو، من غير موعد

-وهل يضع نظارتين سوداوين صغيرتين؟

وأنظر إليه، كأني أرى وجهه الضفدعي أول مرة، فإذا

شدقه ينشق عن ضحكة مثل شق في جبل. وأردّ:
-نعم.
وتتكلم:
-هو الشاب الذي حدثتك عنه، هو خطيبي.

🡐🡐

العودة إلى البحر

-1-

لدى وصولنا إلى باب الخروج، نهض الحارسان، قال أحدهما سائلاً:

-كنتما، من غير شك، ضيفين عند أبي العرفان؟.

وأرد:

-نعم

وتسأله زوجتي:

-كيف عرفت؟

ويرد الحارس الأول؟

-كلنا هنا ضيوف عند أبي العرفان، هو المالك الحقيقي لهذا المنتجع كله.

وتتكلم زوجتي:

-أرجو أن تعجل بفتح الباب.

ويعلق الحارس الثاني:

-مؤسف جداً أن تغادرا الماء والهواء، أنتما هنا في الجنة.

ويضيف الحارس الأول:

-لن تجدا في الخارج سوى النار والإسفلت والزجاج والحديد والحجر.

قلت متحسّراً:

-كتب علينا أن نغادر.

قال أحدهما:

-أرجو ألا تكونا قد ارتكبتما خطأ ما

قلت في سرّي:

-بل هي

ونظرت في عينيها، فسمعتها تهمس في سرّها:

-بل هو

وقال الحارس الآخر:

-على كل حال، لا بد أن تعودا ذات يوم، لن يطول بكما هناك المقام، ستعانيان كثيراً، ولكن لا بد أن تعودا ذات يوم، ستذكران هذا النعيم، سيثور فيكما الشوق إلى الماء والهواء والرمال والسماء، ستعودان، لا بد أن تعودا.

وتلح زوجتي:

-أرجوك، عجّل بفتح الباب.

-2-

واندفعنا معاً إلى الخارج، لا أعرف لماذا كنا نستعجل الخطا، وأحسسنا كأننا معاً قد سقطنا في فوهة الجحيم.

فجأة أحسست بالحقيبة ثقيلة، كنت أحملها في الداخل وحدي، كل شيء تغير هنا، قلت لزوجتي:

-هيا، ساعديني على حمل الحقيبة.

يدي ويدها تتعاونان على حمل الحقيبة، وهي تزداد ثقلاً، ونحن نهبط معاً على الطريق، خطانا ثقيلة، والعرق يتصبّب.

-لا أستطيع التنفس، رئتي لا تكاد تمتلئ بالهواء.

هكذا قالت زوجتي، وهي تلهث، أجبتها:

-وهل ثمة هواء، لكي تمتلئ به رئتك؟ أو رئتي؟ نحن هنا نختنق، لا شيء سوى النار والتراب.

أين الصباح الطفل الجميل؟ ونحن نعدو معاً على الرمل والماء، الموج يغسل أقدامنا، يدك في يدي نطير، نحلّق، مثل فراشتين، الهواء يحملنا، يطير بنا، ونحن على خط العناق بين البر والبحر، بين الماء والرمل، يدانا تعتنق، مثل موجتين، مثل جناحَيْ نورس، والشمس تبتسم لنا، ناهدة من وراء الجبل.

وتهمس زوجتي:

-ليتنا نرجع.

وأردّ:

-لا ينفع الآن الندم، علينا أن نواجه معاً قدرنا.

-3-

نرى من بعيد سيارة قادمة، تتماوج خلال الصهد المتصاعد، غارقة في حمى الذهول، كأنها تهذي، وتمرّ بنا مندفعة، ونحن نلوح لها باليدين.

كرة النار واللهب تصب فوق رأسينا شواظاً من حريق، الإسفلت الأسود من تحتنا يفور ويغلي، لم تعد ثمة سيارة، ليس ثمة غير الصهد المتصاعد كالجنون، نصال اليأس والنضوب تنغرز في العروق.

-انظر، ها هي ذي سيارة قادمة، لوّح لها باليدين، لوح، أرجوك.

هكذا تصيح زوجتي.

وتتصاعد في الصهد مثل مارج، زعيقها صراخ عفاريت تكتوي بنار الجحيم، وتمرّ بنا مثل تنين، تنفحنا

بالنار، عجلاتها تزكمنا باشتعال المطاط.

وتقف على مبعدة، تسحج الإسفلت المائع، وتعج من ورائها سحابة من غبار وتراب وحصى، فنغدو في إثرها، والغبار يلفنا.

-حمولتي من تراب وحجر، سيارتي شاحنة، بعشر عجلات، إن شئتما فادخلا في هذا الحريق، أو فابقيا على الطريق، من فوقكما نار، ومن تحتكما نار.

هكذا يفحّ في وجهي صوته الأجش المخنوق، منقذفاً من فم غليظ في وجه مسوّد من دخان وغبار.

وألتفت إلى زوجتي الناعمة مثل سمكة شقراء، كيف سنصعد إلى جانب هذا الوحش العتيد؟

أين أنت يا أبا العرفان؟

هذا هو البحر، وهذا هو الشط، وهناك في العمق اليم، وذلك هو الجبل، وهذه هي الأشجار، وهذه زروع ونباتات وزهور، وهذه عصافير وتلك أطيار، سميت لنا الأشياء كلها، عرفتنا إلى الساعات والأوقات.

البحر كله لكم والرمال، ولكن حاذروا الموج العالي والرمل الحارّ، لا تسيروا على الرمل الجاف، كونوا دائماً على الشط، فوق الرمل النديان، لا تسبحوا إلا في نور الشمس المتألق، حتى إذا ما توهج ناراً، فعودوا إلى الظل.

أنا هنا لكم النور والظل.

وتندفع الشاحنة، فننقذف أنا وزوجتي إلى أمام، ويقهقه السائق إلى جواري، يميل عليّ، يلطمني في وجهي صوته المشحون برائحة الخمرة والعرق والغبار ممزوجاً بضجيج المحرّك، وهو يصيح:

-أنتما الآن على ظهر عفريت

وأهمس في سرّي:

-بل نحن في فم العفريت.

معاً كنا في البحر، أقدامنا غائصة في الرمل الناعم الندي، وجهانا معاً إلى الأفق الأزرق البعيد، إلى اعتناق اليم بالسماء، معاً حللنا في الكون، ذبنا في الموج، البحر كله من حولنا، السماء كلها من فوقنا، ها نحن نتحد بالكون، وموجة قادمة، زبدها الناعم يتراقص مثل فراشات بيضاء، نمدّ إليها أذرعنا، الموجة تقترب، تقترب، وأضمك إلى صدري، نعتنق معاً، يلتصق بعضنا ببعض، نتحد، الموجة تغمرنا معاً، نحلّ فيها، تغطينا، تظللنا، في داخلها نعوم، الهواء القليل في رئتينا يكفينا، أمنحك من شفتي قطرة من هواء، أسقيك ذاتي، ها نحن معاً في قلب العالم، أنا وأنت معاً، لا شيء إلا أنا، معاً، معاً، والموج والماء والهواء والسماء.

وتبرز أمامي زجاجة سوداء تحملها قبضة مسودّة الأصابع من قذر وشحم وسخام، وصوت السائق يعربد:

-خذ، اشرب، أنت وزوجتك.

حنجرتي تتقد، عروقي تتكسر مثل زجاج، مسامي تنفجر، العرق على أسفل ظهري يسيل.

أنظر إليه، فيصيح بي مزمجراً:

-لا يطفئ النار إلا النار.

وتصيح زوجتي:

-نحن في الاتجاه المعاكس.

ويلتفت إليها السائق سائلاً:

-كيف؟ كيف عرفت؟ أنا أرى بعينيّ كلتيهما الطريق أمامي، ولا أحسّ أني في الاتجاه المعاكس.

وترد زوجتي:

-قلبي هَداني.

وأعلق:

-طالما حذرنا أبو العرفان من الاتجاه المعاكس،

كـان يقـول لنـا: هنـاك دائمـاً اتجاهـان، ولكـن احـذرا الاتجاه المعاكس.

ويصيح السائق سائلاً:

-وهل كنتما في ضيافة أبي العرفان؟

أردّ متسائلاً:

-هل تعرفه؟

ويصيح:

-وهـل فـي الكـون مـن لا يعرفـه؟ أبـو العرفـان هـو الحبيب، هو هنا في القلب، في الداخل، أنـا أعرفـه، طبعاً، أنا أعرفه، أنا لا أقسم إلا باسمه.

ويصمت هنيهة، ثم يهمس:

-إيه، ولكن منذ زمن طويل لم أتوجّه إليه، بل في الحقيقة أنا أتوارى عن وجهه، وإن كنت أعرف أنه يراني، أنا في الحقيقة، أنا.. أنا ملوث، وهو يحب النقاء.

ويخبط بيده على المقود، ثم يصيح:

-حيـاتي كلهـا وراء هذا المقـود، حديـد ونفـط ودخـان وتراب وحجارة، أنا أعمل دائماً في نقل الحجارة والتراب، أنا أتنفس التراب، وآكل التراب، حياتي كلها شقاء، أكاد لا أستحم، لا أعرف الماء، وهذا الشراب أعماني.

ويرفع زجاجة الخمرة إلى فمه.

وتخرج زوجتي من الحقيبـة زجاجـة مـاء، تقدّمها إليـه، وهي تقول:

-خذ اشرب، هذا الماء حملناه معاً من جنة المنتجع، هو من أبي العرفان.

يرمـي بزجاجة الخمرة من نافذة الشاحنة، يلتفت إلـى زوجتي، يتناول منها زجاجة الماء، وهو يصيح:

-كم أنت كريم يا أبا العرفان؟ أنا أعرف أنك لن

تنساني.

ويرفع زجاجة الماء إلى فمه، يشرب منها، يشرب، ويشرب، ثم ينزل الزجاجة عن فمه، يمسحه بظاهر يده، وهو يصيح:

-هذا هو الكوثر، هذا هو، صدّقاني، لقد ذقت كل أنواع الشراب، من أغلاها إلى أرخصها، شربت منها كلها، عمت فيها، سبحت، و لكن لا أجمل من هذا، هذا هو الحياة.

ويرفع زجاجة الماء إلى فمه ثانية، يعب منها.

وفي المدى البعيد أرى سيارة قادمة، فأقول له:

-أرجو أن تعطي لتلك السيارة إشارة، لعلها تقف.

ونهبط من الشاحنة، تفتح زوجتي الحقيبة، تتناول منها حجراً أبيض ناعماً نقياً، تقدمه له، وهي تقول:

-أرجو أن تقبل منا هذا الحجر هدية.

يتناوله منها، ينظر فيه، يتأمله، ثم يقول:

-أعرفه، أعرفه، هذا حجر آخر، غير الحجارة التي أنقلها، غير كل الحجارة، هذا حجر من حجارة البحر، بل قولي هو من حجارة السماء، غسله الموج، نقاه الهواء، هو صاف، سأحمله معي دائماً، أنا وحدي من يقدّر هذا النقاء، هو أجمل هدية منكما، من أبي العرفان.

نودّعه، ونمضي.

-4-

سيارة أخرى تقلنا، كل شيء مختلف، الطريق ليست هي الطريق، السيارة ليست هي السيارة، كأننا على جناح طائر، موسيقاها هادئة تنداح مثل النوافير، عبق ياسمين ناعم ينتشر، أرجاء واسعة تمتد تمتد، آفاق رحبة تشرق، أنوار تشع، تتألق، والطريق تنداح من تحتنا وتطوى، ونحن على وساد من نسيم.

أهمس لزوجتي:

-ليتنا اهتدينا منذ البدء إلى هذه الطريق

وتعلق:

-ليت تلك الطريق ما كانت.

ويأتينا صوت السائق هامساً بلطف:

-لولا تلك الطريق ما عرفتم هذه.

وأسأله:

-من يشرف على هذه الطريق؟

ويرد:

-الحركة على كلتا الطريقين بعلم من أبي العرفان.

السيارة تحلّق بنا، ونحن نرف كجناحي فراشة، روحنا تضيء مثل أنداء الفجر، أي نعيم هذا؟ أي عطاء؟ أي خير أي جمال؟! كأننا عدنا إلى جنة المنتجع، أيمكن أن نعيش ثانية ما يشبه الحياة التي كنا نعيشها هناك، في المكان الأول، ولو للحظات؟!

الطريق تبدأ بالهبوط، نطل على المدينة.

المدينة كضفادع نائمة في مستنقع، كثافة من دخان وغبار وقتام تغطيها، لا ماء من غير شك، لا هواء، أدرك أننا سنعيش هناك على الغبار والتراب والظمأ.

ألتفت إلى زوجتي، أهمس لها:

-لم نحسّ بمسافة هذه الطريق، لقد مرت في لحظات.

وتعلق:

-ليتنا لا نغادر هذه الطريق، ليتنا نظل فيها.

ويتكلم السائق:

-هذه الطريق ممتدة حتى في عمق المدينة، وفي سائر الأرياف والمدن، هي قائمة في كل مكان، ويكفي أن

تفكرا فيها وتقصدا إليها حتى تجداها.

ندخل المدينة، أنا وزوجتي، يحتوينا ضجيج السوق ولغط الباعة ونداءاتهم، ونغرق بما في الجو من سخونة وقتامة وغبار.

تقول زوجتي:

-لقد نزلنا من جنة المنتجع إلى جحيم هذا الشقاء.

وأعلّق:

-كنا إذا ما اشتهينا هناك شيئاً وجدناه على الفور، من غير أن نفكر فيه، بل حتى قبل أن نشتهيه.

-غمرنا أبو العرفان بكرمه وعطائه.

-ولكن، كان دائماً يحذّرنا من البحر، العبا إلى جواره، اسبحا فيه ما شئتما، ولكن احذراه، لا تدخلا فيه والموج عالٍ، لا تأتيا فيه بما لا يتناسب وإياه، هو كبير وعظيم، لا ترميا فيه بشيء، لا تلوثاه، حافظا على نقائه.

وتقول زوجتي:

-ولكننا لم نفعل شيئاً.

وأردّ:

-هل نسيت؟ في ذلك الصباح الجميل بسطنا على الرمال مائدة الإفطار، شربنا الحليب، احتسينا القهوة، ثم اختطفت أنت تفاحة حمراء، وجريت بها نحو البحر، وعدوت أنا في إثرك، دخلنا في اليمّ معاً، تراشقنا بالماء، غمرنا الموج، ثم قضمناها معاً، هناك، في عمق اليم، والموج يغمرنا، ثم رمينا بقاياها على سطح البحر.

-هو أمر هين.

-هو هين عندنا، ولكنه عند أبي العرفان عظيم، لقد عصينا أمره، أتينا في البحر بما لا يتناسب والبحر، لوّثناه.

وتعلق ثانية:

-أنت تبالغ

وأرد:

-لا، أنا لا أبالغ، هل نسيت، بعد أن قضمنا التفاحة نال منا الوهن، وأحسسنا بالبحر وقد هاج فجأة، وعلا موجه، وأخذ يرمينا بالزبد وبقع الزيت، علق بعضها بجسدنا، وحين خرجنا، لم نجد على الرمل ثيابنا، فأحسسنا بالخجل، وعدنا إلى المنتجع شبه عراة، قلت لي: كيف سنلقى وجه أبي العرفان، فأخذنا نستتر بأوراق الشجر، نخصفها علينا، وبقع الزيت تغطينا.

في زحمة السوق زوجتي تطرق، تسقط من عينها دمعة، ترفع رأسها، ثم تسأل:

-أبو العرفان غاضب علينا إذن.

-أجل

-وقد خرجنا من جنة المنتجع شبه مطرودين.

-بل مطرودين.

ونمضي في عمق السوق.

زوجتي تشتهي لحم الطير، وأنا أشتهي لحم الضأن، تمتد يدها إلى فاكهة هنا وفاكهة هناك، تملأ السلال، وأنا أشتري الخبز، يخنقنا الزحام، نغص بالرغبات، نضيق ذرعاً بكثرة الحاجات، ماذا نأخذ؟ وماذا ندع؟ وكل ما أمامنا نشتهيه.

أسأل زوجتي:

-هل سنأكل كل هذا؟

وتردّ، وهي تضحك:

-أجل، سنأكله، ولن نشبع.

ثم نشتري زهوراً، وندخل البيت معاً.

-6-

ذات صباح يأتيني من يطرق الباب، وأسرع إلى المشفى أنا وزوجتي، ما كنّا نتوقع ذلك أبداً، أين السعادة والسرور؟

أين المودة والإخاء؟ أين الصلاح؟ لماذا وكيف؟ وهما معاً ولدانا، رضعا من لبن واحد، نعما معاً بظل أب واحد، كيف؟

حين نصل المشفى نجد ولدنا هائل قد فارق الحياة، داسه قاسم بسيارته، فقضى عليه، ثم حمله إلى المشفى، وهو يندب ويبكي، ويقول: هو أخي، ولكن أنا دسته بسيارتي، كل يوم أراه يجري حول المدينة، وأنا عائد إلى البيت ليلاً، يجري رشيقاً، نحيف البدن، ضامر البطن، لا ترهل في جسمه، لا يشكو من علة أو مرض، على الرغم من فقره، وأنا لا أستطيع أن أمشي خمسة أمتار، وإنما أشكو من ارتفاع الضغط والشحوم، ألعن سيارتي، ولا أستطيع مفارقتها، وهذه الليلة، رأيته كشأنه كل ليلة، لا أعرف ماذا ثار في نفسي، لا أعرف بماذا أحسست، قلت لعلي أشفق عليه، لعلي أحمله، وفعلاً، حملته، حملته بنفسي وفي سيارتي، ولكن بعد أن دسته بها.

من صمت المقبرة الموحش، إلى صخب السوق نرجع.

سلال عارمة بالتين، في الأعلى الجيد، في الأسفل الرديء، تلال من قمح كالذهب يلتمع، وفي داخله حجر وزؤان، غانية شوهاء ترقص، زامر دميم يعزف، قرد أعمى يقلّد، عسس وعيون وجند يجوسون خلل الزحام.

وفي الزحام أرى ولدي قاسماً، يتأبط ذراع عسكري.

-7-

أهرع إلى بيتي.

أقفل الباب على نفسي، أحسّ بالوهن يدبّ في

الأطـراف، بعضــي يتـداعى علــى بعضــي، كــأني بنيــان يتزعزع.

يقلقنـي ولـدي قاسـم، حزنـت لفقـد ولـدي هائـل، ولكـن قاسـماً بشـقاوته وأمراضـه وعللـه أنسـاني حزنـي، كـل يـوم تصـوير وتحليل وأدويـة، ركبتـه الأمـراض، نخرت جسده، وهو عاطل عن العمل، ولا أستطيع أن أتخلى عنه، يجب أن أعطيـه، لكـي ينفـق، لا علـى علاجـه، فحسـب، بـل علـى مغامراته ونزواته وملذاته.

أزيح الستار، أنظر إلى المدينة، أراها غارقة في سبات عميق، تغط تحت سحابة من غبار ودخان وسخام، الشمس لا تشـرق عليهـا، وهـي نائمـة فـي حفـرة عميقـة، الجبـال كالأسوار، تحيط بها من كل جانب، أهلها لا يجيدون سوى الاتجار، يتاجرون بكل شيء حتى الهواء.

شقاوة ولدي قاسم أنستني حزني على ولدي هائل، قلقي علـى مـدينتي أنسـاني كـل شـيء، لا أعـرف مـاذا أفعـل؟ لا أعرف، لا أكاد أفهم، حين أفكر، أجد نفسي تائهاً، أحياناً أفكر بالقتل، مثلما فعل ولدي قاسم، ولكن من أقتل؟ ليس ثمة غير نفسي، أحياناً أقول: لعلي أنا المخطئ، ولكن، من يدلني على الصواب.

وتـدخل زوجتـي علـيّ، حاملـة لـي الـدواء، أتناولـه مـن يدها، وأنا أقول:

-ساعديني، لم يبق إلا أنت، على ذراعك أتوكـأ، إلـى صدرك ألجأ، أحتمي بدفئك، أنت شريكتي في هذا الشقاء، يا من عرفت جنة المنتجع وعطاء أبي العرفان، ثم نزلت معي إلى هذا الجحيم، طفت بي الأسواق، دللتني على كل الحاجات، ساعديني، دلّيني على طريق الخلاص.

-8-

أستيقظ ذات صباح، أقول لزوجتي:

-إني راحل

تدهش، تفتح عينيها، ذاهلة، وهي تسأل:

-إلى أين؟

-إلى أبي العرفان

-ومتى دعاك؟

-الليلة، هتف إليّ.

-وهل تظن أنه سامحك؟

-بل قولي: هل سامحنا؟

-هل تعود إلى اتهامي؟

-لا أقصد، على كل حال، اطمئني، سامحنا كلينا

-وكيف عرفت؟

-تلقيت منه كلمات

وأصمت، فتسألني:

-هل أهيئ لك حاجاتك؟

وأردّ:

-لا يمكن أن آخذ معي أي شيء، فهو كما تعرفين كريم.

تقول:

-فاجأتني.

وأردّ:

-كل شيء متوقع، ومعروف، وله أوانه، ولكن دائماً نحس بالمفاجأة، لأننا ننسى.

-9-

وأهبط على الدرج، أحسّ كأنني عار، أحس الدرج معتماً، ثمة عتمة، وضيق، واختناق، لا أعرف لماذا أصبح المدخل ضيقاً، أكاد أختنق، كيف سأخرج؟ أحسّ بروحي

تخرج مني، أكاد أتمزّق، أتداعى عضواً فعضواً، سافرت من قبل كثيراً، وارتحلت، ولكن هذه الرحلة تبدو مختلفة، أحس بحنين إلى زوجتي والأولاد، أكاد أختنق، أحس بحنين أعظم إلى لقاء أبي العرفان، أذكر دعوته الكريمة، والبحر والماء والسماء والهواء وضيافته وعطاءاته التي لا تنفد ويده المبسوطة ورعايته، أحس بالارتياح، نفسي تطمئن، ألج إلى النور، تشرق روحي، أحس أني تخلصت كلياً من البناء والأدراج والحجارة والزجاج والحديد والأثقال.

-10-

ثمة سيارة بيضاء كأنفاس الملائكة تقلّني، السائق يلتفت إليّ مرحباً، وهو يقول:

-سلام.

عيناه تبسمان كرفيف السعادة.

أنا متأكد أني رأيته من قبل، ولكن ربما في هيئة أخرى، في شكل آخر مختلف، ولكني متأكد من أني رأيته من قبل، إنه هو من غير شك.

وأنظر، وإذا الحجر البحري الأبيض الناعم الذي كانت زوجتي قد أهدته إليه هو أمامه، وراء المقود.

أقول له:

-عرفت إذن الاتجاه الصحيح

-أجل

-وكيف؟

-كان حسبي أن أقبض أجرة الحمولة، ولا أسأل إلى أي غرض أنا سائر بهذا الحجر أو ذاك، كان همّي فقط أن أقبض ولكن اختلف الأمر بعد ذلك.

ويمد يده إلى الحجر البحري الأبيض المركون أمامه، وراء المقود، يلمسه ثم يقول:

-الفضل لزوجتك، هي التي أهدتني هذا الحجر، منه تعلمت أن حجراً عن حجر يختلف، صرت أسأل إلى أين هذا الحجر؟ وإلى أي غرض أنا به ذاهب؟ إذا كان لبناء مشفى أو معبد أو مدرسة أو مصنع، فأهلاً وسهلاً، أحمله بنصف الأجرة، إذا كان لردم مستنقع، أو صدّ طوفان، أو بناء سد، أحمله ربما من غير أجر، أما إذا كان لبناء سجن أو قصر أو ملهى أو خندق، فلا وألف لا، ولو دفعوا لي أضعاف ما أتوقع، حتى لقد أصبحت عبرة بين السائقين، شاحنتي وحدها أصبحت المميزة.

وأعلّق:

-حسناً فعلت.

ويتكلم:

-لا، ليس هذا فحسب، بل علمت ولدي الوحيد المبدأ نفسه، وأنا مطمئن إلى أنه سيسير من بعدي على الطريق نفسها، لقد تركته الآن وأنا مطمئن النفس.

ويلتفت إليّ ليسأل:

-وأنت ماذا فعلت؟

أرسل زفرة طويلة، ثم أقول:

-بعد أن قتل ولدي أخاه، أحسست أنه قتل الناس جميعاً، قتل الإنسان في داخلهم، قتل البراءة والنقاء والصدق، فإذا هم لا يفكرون بغير المال والبناء والتجارة والسيارات، سبيلهم إلى ذلك الكذب والخداع والختل والغش والرياء، ولقد أحسست بالقهر، وبالضيق، بالاختناق، كدت ذات يوم أقدم على قتل نفسي، ولكن زوجتي هي التي أنقذتني.

ويسألني:

-وماذا فعلت؟

وأردّ:

-كانت أكثر وعياً مني، أكثر فهماً للناس، قالت: إذا كان ولدي هائل قد قتل، فإن كل الأولاد الطيبين الأبرياء هم أولادي، ولذلك يجب أن نعمل معاً، أنا وأنت، على إيقاف القتل، يجب أن نعمل على بعث هائل فيهم جميعاً، يجب أن نحييه، هكذا قالت لي.

ويعلّق:

-مهمة صعبة.

وأردّ:

-أجل، ولذلك اخترت أنا وزوجتي التعليم مهنة لنا كلينا، انطلقنا إلى المدن والقرى والأرياف، دخلنا كل المدارس، انتقلنا من جيل إلى جيل، من عام إلى عام، نعلمهم الحرف، الكلمة، الفعل، الحب، الخلق، نحدثهم عن أبي العرفان، نعلمهم ما كان هو نفسه قد علمنا من قبل، نحدثهم عن كرمه وعطاءاته وسماحته وحبّه، نتمنى عليهم أن يتمثلوا صفاته، أن يتعرفوا إليه، وإن لم يلتقوه أو يروه، كنا نحدثهم عن جنة المنتجع، عن البحر والماء والموج والهواء والسماء، نبعث فيهم الشوق إلى تلك الآماد والآفاق، الأنداء والأشذاء، نفتح أعينهم على ما وراء الأسوار والأحجار والحديد والزجاج والإسفلت والسوق والبيع والشراء.

ويعلق:

-مهمة أصعب مما يمكن للمرء أن يتصور.

وأضيف:

-لا أنكر، في أحايين كثيرة كنت أضعف، كنت أضجر، أضيق ذرعاً، أملّ، أسأم، وكانت زوجتي دائماً إلى جانبي، معي، تشدّ من أزري، تقويني، تنفث في داخلي روح القوة والإيمان.

كنت أرى الآخرين يشيدون العمارات، يشقون الطرق يملكون السيارات، كلّ ما هو ملموس ومرئي كان لهم،

كان معهم، كان ملكهم، وكنت أجد نفسي أبعثر الكلمات في الهواء، أذروها مع الريح، وأفتح يدي، فإذا هي صفر، خواء من أي شيء، حتى إن أكثرهم كانوا يقولون لي، أنت لا تملك سوى الكلام، وبالكلام كان بعضهم يغش بعضهم ويخدع. ويكذب ويرائي، فأقول لهم، حسبي أن كلمتي تختلف.

ولكن، بعد ذلك العمر، لست الآن بنادم، لقد كنت أنا وزوجتي معلمين، ولنا الفخر، لقد تركت كل شيء، وجئت كما ترى، وأنا لست بنادم، أنا على يقين الآن من أن في طلابي من هو الآن مهندس بناء، يشيد الجسور، كي يخفف من الازدحام، ويقلل من التلوث، وأن فيهم من هو قاض، لن يختل بين يديه أبداً ميزان العدل، وأن فيهم من هي طبيبة، تعالج الأطفال، تخفف عنهم الألم، تساعدهم على النمو الصحيح والسليم، وأن فيهم من هي معلمة، تربي الأجيال وتعرفها إلى أبي العرفان وجنة المنتجع، تبعث فيها الشوق إلى النور والماء والهواء والسماء مثلما فعلنا، هؤلاء كلهم أولادي، هم جميعاً هائل.

حتى ولدي قاسم نفسه، تاب وارعوى، وهو الآن منصرف إلى التعبد، وولده صالح طبيب، وابنته هدى خبيرة في معمل دواء.

وينطلق بي، في سيارته البيضاء، مثل فراشة تسبح في النور، وهو يسأل:

-والآن إذن إلى أبي العرفان

وأرد:

-أجل

ويرفّ صوته كالشذى:

-كان دائماً هو المقصد، وأنا الآن مثلك، إليه راجع

وأعلّق:

-يسرنا جميعاً أن نلقاه.

وتلوح لنا الأنوار.

-11-

جنة المنتجع ليست كما كانت، بل هي أبهى وأبدع. لا سماء ولا أرض، ولا برّ ولا بحر، ولا خط لقاء بين هذا وذاك، الكل في الكل، هي الجنة عينها، ليس كمثلها شيء.

وأنا وحدي، أنتظر لقاء أبي العرفان، أتشوق إلى رؤية وجهه، وفي كل مرة أسأل عنه، يقول لي الحارس:

-هو في شغل، تريث.

طال انتظاري، استبد بي الشوق، أضواني الحنين، لست أدري كم مرّ من وقت، فلا وقت هنا، ولكن أحس أن انتظاري قد طال.

كنا معاً نتحد، عند خط اللقاء بين البرّ والبحر، في الموج نحلّ، نتوحّد بالكون، أين أنتِ؟

أنت دللت خطاي إلى الطريق الصحيحة، أنت أعدتني إلى جنة المنتجع، بفضلك هتف لي أبو العرفان. أين أنت؟

وأرى الحارس قادماً، أسرع إليه، أسأله مستبشراً:

-هل أذن لي بلقائه؟

ويردّ:

-أزف موعد اللقاء، بعض التريث، قريباً ستصل زوجك.

وأسأل متشوّقاً:

-وأبو العرفان؟

-ستلتقيه، ستلتقيه أنت وزوجك معاً، وعندئذ ترى وجهه، فيكمل اللقاء.

صدر للمؤلف

مؤلفاته المنشورة

-***حركة التأليف المسرحي في سورية***، *(دراسة): اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1982، 430 صفحة، قطع كبير.*

-***من الحكايات الشعبية***، *(مجموعة حكايات شعبية) وزارة الثقافة، دمشق، 1983، 194 صفحة، قطع وسط.*

-***يوم لرجل واحد***، *(مجموعة قصص قصيرة) ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1986، 200 صفحة.*

-***المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر***، *(دراسة)، دار طلاس، دمشق، 1989، 374 صفحة، قطع كبير.*

-***حجارة أرضنا***، *(مجموعة قصص قصيرة)، مطبعة عكرمة، دمشق، 1989، 109 صفحات، قطع صغير.*

-***الكوبرا تصنع العسل***، *(رواية)، دار القلم العربي، حلب، 1996، 145 صفحة، قطع كبير.*

-***بدر الزمان***، *(مسرحية)، دار القلم العربي، حلب، 1996، 104 صفحات، قطع كبير.*

-***حلم الأجفان المطبقة***، *(مجموعة قصص)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996، 335 صفحة، قطع وسط.*

-***عريشة الياسمين***، *(مجموعة قصص)، دار القلم العربي، حلب، 1996، 256 صفحة، قطع وسط.*

-***دراسات في المسرحية العربية***، *(دراسة): مطبوعات جامعة حلب، حلب، 1997، 185 صفحة.*

-***حكايات شعبية*** *(نصوص ودراسة): اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، 770 صفحة.*

-***دروب الشعر العربي الحديث*** *(دراسة): مطبوعات جامعة حلب، حلب، 2000، 240 صفحة.*

-***لأنك معي*** *(مجموعة قصص قصيرة جداً): دار شمال، دمشق،*

2000، 180 صفحة، قطع صغير.
-**طعم العصافير** (مجموعة قصص قصيرة): دار القلم العربي، حلب، 2001، 112 صفحة، قطع وسط.
-**قصائد مقارنة** (دراسة ونصوص): مطبوعات جامعة حلب، حلب، 2001، 125 صفحة، قطع كبير.
-**من الأسطورة إلى القصة القصيرة** (دراسة): منشورات دار علاء الدين، دمشق، 2001، 300 صفحة، قطع كبير.
-**العودة إلى البحر** (مجموعة قصص قصيرة): اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، 154 صفحة، قطع وسط.

■■

المحتوى

القصة	رقم الصفحة
تل أم أحمد	5
أمسية صيف	18
قطٌ. من فخّار	25
من غير كلام	35
رزمة أوراق	45
ذهاب... وإياب آخر	55
الجدار.. والقبعة الصغيرة	61
وتبقى الغابة	68
شجيرات الورد	81
الشرط الرابع	87
العودة إلى البحر	92
المحتوى	112

■■

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

العودة إلى البحر: قصص قصيرة/ أحمد زياد محبّك-
دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2001 -
154ص ؛ 20سم.

1- 813.01 م ح ب ع   2- 813.009561 م ح ب ع
2- العنوان   4- محبّك

ع- 2001/5/816   مكتبة الأسد

❑❑

أحمد زياد محبّك

*من مواليد مدينة حلب عام 1949.
*تخرّج في قسم اللغة العربية وآدابها من جامعة حلب عام 1972.
*نال الماجستير في الأدب العربي الحديث من جامعة حلب عام 1981.
*حاز الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشق عام 1984.
* عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ عام 1983.
* عضو هيئة تحرير جريدة الأسبوع الأدبي منذ عام 1997 إلى عام 2000.
* عضو نادي التمثيل العربي منذ عام 1988.
* عضو جمعية العاديات بحلب منذ عام 1998.
* عضو اتحاد الصحفيين منذ عام 1999.
*رئيس قسم اللغة العربية من عام1998 إلى عام 2000.
*أستاذ لمادة الأدب العربي الحديث في جامعة حلب منذ عام 1984.

■■